الألوكة
www.alukah.net

فريضة الفاعلية

سعيد بن محمد آل ثابت

فريضة الفاعلية

إني رأيت ركـود المـاء يفسـده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب

١. مقدمة
٢. المفهوم الاصطلاحي (الفاعلية)
٣. أركان الفاعلية:
٤. الفاعلية في الإسلام
٥. حاجتنا للفاعلية
٦. ثمرات الفاعلية
٧. كيف أكون فاعلاً؟
٨. قيود وأوهام
٩. نماذج من الفاعلين

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، أما بعد،،

جلس عمر رضي الله عنه إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا؛ فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةٌ ذهباً أنفقه في سبيل الله، وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثلَ أبي عبيدة بنِ الجراح، ومعاذِ بنِ جبلٍ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله[١].

هذا الاختيار العُمري ليس بدعاً من القول، بل فقهٌ ودراية أولت عمراً الحكمة في تعيين أولويات الأمة، ثم مؤشرات اختيار هؤلاء. أليس هو القائل-رضي الله عنه-: "أعوذ بالله من جلد الكافر وعجز الثقة".

[١] الطبقات: (٤١٣/٣)، المستدرك: (٢٥٢/٣).

إن وجود الرجال الفاعلين هو أهم احتياجات الأمم الثائرة على جاهليتها، (وهو حجر الزاوية في كل مشروع، وهو يمثل أزمة تاريخية لا يعرفها إلا من ولي عملا أو قام على مشروع، والذي يتصور أنه يمكن أن يكون هناك اكتفاء من الرجال الذين يسدون جميع الثغرات المفتوحة فقد أسرف في الخيال، ولكن من ظفر بواحد منهم فقد ظفر بكنز عظيم فلا يفرط فيه فأعجز الناس من فرط في كسب الرجال وأعجز منه من ضيع الذين ظفر بهم)[٢].

لقد أمر الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام بإيصال رسالته لخلقه: "وماخلقت الإنس والجن إلا ليعبدون"، وتعيّن على الخلق بعد بلاغ رسلهم عبادة الله والائتمار بأمره الذي كان جلياً "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة". وبهذا سارت الرسالات السابقة على هذا الأمر بالتحديد.

حتى أتى محمد-صلى الله عليه وسلم- وأمته وميّزهم الله سبحانه "لتكونوا شهداء على الناس"، وجعلهم أمة وسطاً، لكن هذا ليس لجنسهم ولنوعهم، وإنما لخصيصة وميزة معينّة لم تكن في أسلافهم، هذه الميزة هي التي جعلت هذه الأمة تحتل الصدارة والامتياز، وجعلتا أهل شهداء على الأمم، بل جعلت من أتباع رسولها-عليه الصلاة والسلام- أشباه رسل في مبادئهم وخيريتهم، إنها "كنتم خير أمة أخرجت للناس"، ولم خير الناس؟ الجواب "تأمرون بالمعروف وتنهون هن المنكر"، هذه الخيرية هي الفارق المضاف لهذه الأمة، فمتى تميّز أفرادها بالعمل والفاعلية لدينهم كانت لهم الخيرية، ومتى تنازلوا عنها وتركوها، وأسدلوا الستار عن أسلافهم كانت سنة الله ماضية "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم"، وذلك لتبقى الخيرية التي قضى الله في عليائه خاصية لهذه الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فمجموعُ أمتِه (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) تقومُ مقامَه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعُهم حجةً قاطعةً، فأمتُه لا تجتمعُ على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله. وكلُّ واحدٍ من الأمةِ يجب عليه أن يقومَ من الدعوة بما يقدرُ عليه إذا لم يقم به غيرُه، فما قام به غيره: سقط عنه، وما عجز: لم يطالب به. وأما ما لم يقم به غيرُه وهو قادرٌ عليه، فعليه أن يقومَ به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك، وقد تقسطتِ الدعوةُ على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوعُ الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى. وقد تبين

[٢] من كلمات الشيخ الدكتور عبدالله بن محمد الشهراني-رحمه الله-(ت١٤٣٤هـ).

بهذا أن الدعوةَ إلى الله تجبُ على كل مسلم، لكنها فرضٌ على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعينِ من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغِ ما جاء به الرسول، والجهادِ في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن. وقد تبين بذلك أن الدعوة نَفسَها أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، فإن الداعي طالبٌ مستدعٍ مقتضٍ لما دعا إليه، وذلك هو الأمر به، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمورِ به، واستدعاءٌ له ودعاءٌ إليه، فالدعاء إلى الله: الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيلُه تصديقُه فيما أخبرَ، وطاعتُهُ فيما أمر.[٣]

وفي هذا المبحث المختصر لعلي أن أسطر شيئاً عن هذه المزيّة، وأضيء لنفسي أولاً قبساً أتلمس به الطريق، ثم لجيل هذه الأمة وقوامها؛ لنحيي في نفوسنا الجد والجدة، ولتأخذ عزائمنا أهبتها لنعمل لهذا الدين العظيم، فياله من دين لو كان له رجال. وأخذت على نفسي عدم السرّد والإخلال كذلك قدر المستطاع، فوقت العامل الفاعل ثمين، ويكفيه إشارة وتلميح، والله أسأل لي ولكم أن يستعملنا ولا يستبدلنا.

المفهوم الاصطلاحي (الفاعلية):

اختلف الباحثون في تعريف الفاعلية، وتحرير مصطلحها نظراً لعوامل مختلفة منها الفلسفة التي تنطلق منها التعريفات، وكذلك المرحلة الزمنية المحاذية لمفهوم الفاعلية.

وثمة تجاذب بين مصطلحي (الفاعلية والفعالية)، فالبعض يفرق بينها، والغالبية يجعلونها واحدة، ومن فرّق بينها قالوا أن: الفاعلية: هي الأثر لأفكارنا على أرض الواقع، فكل عمل أو قول لا يحقق نتائج عملية يكون فاقد الفاعلية.

والفاعلية يستعاض بها بدلاً من اسم فاعل النشاط، مثل: مدى فاعلية برنامج تدريبي على أطفال منشأة تعليمية؛ فهي النجاح في تحقيق الأهداف وعادةً ترتبط بالكفاءة. حيث قالوا الكفاءة: فعل الأشياء بطريقة صحيحة، والفاعلية: فعل الشيء الصحيح.

---

[٣] الفتاوى (١٥/١٦٥-١٦٦).

أما الفعالية: فيستعاض بها بدلاً من اسم نشاط قائم، فهي التأثير والقدرة على إحداث أثر قوي. مثل: فعالية الأدوية المضادة للقلق.

والفاعلية مصطلح محدث، فقالوا: أنها القدرة على إحداث تأثير، وفي الطب:قدرة الإجراء الطبي أو الدواء على إحداث التأثير المراد[٤]. والفاعلية من مادة (فِعل)، قال الفيروز آبادي: الفعل: حركة الإنسان، الإنسان، أو كناية عن كل عمل متعد[٥].وفي المعجم الوسيط: وصف في كل ماهو فاعل[٦].

وقال مالك بن نبي: الفاعلية هي حركة الإنسان في صناعة التاريخ (إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ)[٧]. وقيل أنها في المفهوم العام: العمل على بلوغ أعلى درجات الإنجاز وتحقيق أفضل النتائج بأقل التكاليف[٨]. وهي تتسق مع الإيجابية في معانٍ مهمة أولاها حمل الهم والشعور بالمسؤولية، يقول أحد الباحثين (الإيجابية: حالة في النفس تجعل صاحبها مهموماً بأمر شرعي، ويرى أنه مسؤول عنه مسؤولية أدبية نابعة من ذاته، ولا يألو جهداً في العمل له، والسعي من أجله)[٩].

إذاً الفاعلية: هي قوة كافية داخلية تبعث في النفس القدرة على العمل الدؤوب والحركة المستمرة من أجل تحقيق أفضل النتائج على المستوى الفردي والاجتماعي في إطار التصور الإسلامي الصحيح.

أركان الفاعلية:

للفاعلية: ركنان لا تقوم إلا بهما، فهما جزء من حقيقتها، وأساس في تكوينها، بحيث لا توجد الفاعِليَّة إذا انتفى أحدهما، ولا تتوافر إلا بتحققهما مجتمعين، وهذان الركنان هما: تحقيق الأهداف المنشودة، وإحداث التأثير الإيجابي.

١. تحقيق الأهداف المنشودة، والهدف هو (صورة لحالة مستقبلية منشودة، مقرونة باستعداد لتخصيص الموارد اللازمة لتحقيق هذه الصورة)، ولعل تدني نسبة تحقيق الأهداف، وبالتالي تدني

---

[٤] تعريف الفاعلية في الويكيبديا.
[٥] "القاموس المحيط "، (ص١٠٤٣).
[٦] ص٦٩٥.
[٧] "تأملات"؛ لمالك بن نبي (ص:١٢٥).
[٨] "التربية والتجديد"؛ لماجد الكيلاني.
[٩] "الإيجابية حياة الأفراد والمجتمعات"؛ لمحمد النادي (ص:١١).

نسبة تحقيق الفاعِليَّة، ينجم في المقام الأول عن غياب هذه الصورة للحالة المستقبلية، أو عدم وضوح ملامحها وأبعادها، أو نسيان معالم هذه الصورة بعد تحديدها، أكثر مما ينجم عن سوء استخدام الموارد، وأكثر مما ينجم كذلك عن ظروف طارئة خارجة عن الإرادة.

٢. إحداث التأثير الإيجابي، والتأثير يشير إلى معنى ترك الأثر، والأثر يدل على العلامة أو الصورة التي يطبعها المؤثر في المتأثر، ولو أنك قلَّبْتَ كلمة التأثير في خلدك، وتأملت مضمونها، في محاولة للوصول إلى دلالتها، لوجدتها شديدة الارتباط بمعنى التغيير وتبديل الوضع من حال إلى أخرى، بمعنى أن إحداث الأثر يؤدي إلى القيام بتغيير وضع ما قائم إلى وضع آخر يختلف عنه. ومجال التأثير طبعا هو البيئة المحيطة، فقد يقع التأثير على ما يسود هذه البيئة من أفكار وقيم وتصورات واتجاهات ومفاهيم ومعتقدات وسلوكيات، وقد يقع على الوضع الاقتصادي السائد، أو على الآلات والمعدات والوسائل التكنولوجية المستخدمة، أو على سبل وأساليب الاتصالات، أو على الجانب المادي الملموس في البيئة الطبيعية، هذا ويمكن أن يقاس التأثير من عدة جوانب منها عمق ذلك التأثير، واتساعه، وامتداده الزمني، ونفعه، ومدى توافقه مع القيم الأخلاقية.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن التأثير المقصود في ركن الفاعِليَّة هو التأثير الإيجابي، قال تعالى: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون"، فانظر أهل الخير والشر كل يعمل، وكل يتألم لمنهجه، ولكن الفرق شاسع، والفارق بائن فبين من يتألم وينهض رجاء الخير والنفع للناس، وبين من يتألم وينهض في سبيل الشيطان وهوى النفوس. حتى وإن أسقطنا ذلك على العلوم التجريبية والحديثة فإن الأفعال التي لا تترك إلا تأثيرا سلبيا، لكن لا يمكن وصفها بالفاعِليَّة، حيث أن الفاعِليَّة بذاتها ذات مفهوم إيجابي، وتزداد كلما كان التأثير أعمق، وأوسع، وأنفع، وأطول، وأكثر توافقا مع القيم الجليلة.

الفاعلية في الإسلام:

أولاً: مسارات الفاعلية في القرآن الكريم:

- (الفاعلية لا الكَلَّية) قال تعالى: "وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط

مستقيم"النحل:٧٦. هذان مثالان ضربهما الله تعالى، أحدهما عالة وهو يمثل (الكَلّية) فلا قدرة ولا إرادة ثم لا خيرية وهو نتيجة حتمية، ويقابله المثال الثاني، وهو العامل المستقيم، فكان الفعل (يأمر) حاضر لإثبات الحاضر لديه والمستقبل، ودال كذلك على الاستمرار في النفع والعطاء، هو في نفس الأمر فهو آمر بالعدل الذي قامت عليه السموات والأرض، ومن لوازم الفاعلية الاستقامة ابتداء، فليس صار فاعلاً وداعياً وهو في غير المسلك الصحيح.

- (المبادرة لا الانتظار) قال تعالى: "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير"الحديد. أصحاب الإيمان الكامل واليقين الصادق لا ينتظرون كرامات مرسلة، ولا جماهير مصفقة، فمتى اعتقدوا صحة الطريق قدموا أنفسهم وأموالهم رخيصة لدين الله دون سالف تطمينات، وكان العامل منهم خير وأسمى وأقرب لله من ذلك الذي لما عمّ الخير وضمن قلة التضحيات ساهم وقدّم. الفرق بين النموذجين لاشك أنه بارز، ولذا فالعامل الصادق لهذا الدين يدرك حقيقة المراحل التي تمر بها أمته وسنن الله التي تجري وجرت عليها، فلا يتأخر أو يصيبه الخمول والركود لأي سبب كان بل الإقدام والبذل مهما رُزئت الأمة، وكل مرحلة لها نموذجها ومنهجها المناسب، المهم عدم القعود.
- (الخيرية الأزلية) قال تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُون" آل عمران:١١٠. قال القرطبي: قال أبو هريرة: نحن خير الناس للناس، نسوقهم بالسلاسل للإسلام. وها نحن نجد اليهود يسخّرون الآخرين لهم، بينما المسلمين يسخّرون أنفسهم للآخرين، فأين الخيرية الحقة؟ وقد سبق الإلماح حول هذه الآية في المقدمة، ولكن أضيف هنا أن سعة الخيرية (العمل والدعوة) تتسع للأمة كاملة "من رأى منكم منكراً فليغيره"، فلا يستأسد بها أحد دون الآخر، وفي الجهة المقابلة لا يلقيها أحد على الآخر، فالكل مسؤول عن هذه الخيرية بالمراتب حسب استطاعته وعلمه "بلغوا عني ولو آية". وحتى بين العصاة ذاتهم أن ينهى بعضهم بعضاً كما قرر ذلك غير واحد من أهل العلم في مفهوم قوله تعالى: "كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه". لكن هذا لا يجعل هناك فئة عالمة متفقهة تقود وتفتي وتعلم وتزكي إذ لا ينفع أن يكون الناس فوضى لا سراة لهم، قال الله تعالى: "وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من

كل فرقة منهم طآئفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"التوبة:١٢٢.

- (بلاغُ الناس مؤشرُ الرجولة) قال تعالى: "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ"يس:٢٠. لم نعرف اسمه، بل خبره وكنه ذلك في المعنى الذي يحمله. فعلى أنه في أقصى المدينة لكنه أتى، ولم يأتِ ماشياً بل ساعياً تاركاً قيود الأرض تتفلت من أقدامه يمنة ويسره لينقذ القوم "ياقوم اتبعوا المرسلين"، هؤلاء هم الأولياء دأبهم العمل والمبادأة والحرص على أقوامهم، شعارهم "ياليت قومي يعلمون".
- (عملك هو أنت) قال تعالى: "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى"النجم:٣٩-٤٠. ليس لك أيها الإنسان سوى عملك، والعمل إما فردي النفع أو عام النفع، قال تعالى: "ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون "، وكل ما كان أثرك وتأثيرك في الخلق حسناً كان في عداد حسناتك، والحصيف الذي يسعى لإحياء حسناته بعد موته، فلا تموت أعماله بفناء جسده.
- (التنافس للآخرة) قال تعالى: "فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"البقرة: ١٤٨. هذه الدنيا دار عمل وبناء لآخرة فيها المستقر والقرار، ولم يجعل الله الدعوة للسباق في الدنيا البتة "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور"الملك:١٥. إنما مشي دون إسراع وأكل دون لهث. بل لا يلتفوا لدنياهم إلا مكرهين غير ذاكرين لها، فيوصيهم الله بأن لا ينسوا بعض حقوقهم فيها "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"القصص:٧٧. أعمال الآخرة هي همّ أولي الألباب ومهجة العاملين الصادقين "وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ"المطففين:٢٦. ومن اصطفاه الله للعمل لدينه فهو المصطفى حقيقة وحكماً، وهو من النوادر الثمينة، فثلثي القوم بين ظالم لنفسه ومقتصد، والثلث والثلث كثير سابق للخيرات "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير"فاطر: ٣٢. شعاره (لا يسبقني إلى الله أحد)، له في الدنيا شواهد كثر على خيريته ونفعه، فأجلّ ما يقدم من الصالحات هو توريثها في الدنيا حتى يرث الله الأرض من عليها،

فاسمعوا وأطيعوا لخالقكم، قال تعالى: "سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"الحديد:٢١.

- (العمل والإتقان) قال تعالى: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ"التوبة:١٠٥. دعوة للعمل والإخلاص والتفاني والجودة. قال القرطبي: فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون أي بإطلاعه إياهم على أعمالكم. وفي الخبر: لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان. جاءت هذه الآية في سياق سورة التوبة. وبعد أن تعرض الله للسابقين بالخيرات وما أعد الله لهم، وتكلم عن المنافقين وعذابهم ثم عن الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وأمر رسوله بالأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وحضه على الدعاء لهم. قال سيد: إن الإسلام منهج حياة واقعية ، لا تكفي فيه المشاعر والنوايا ، ما لم تتحول إلى حركة واقعية . وللنية الطيبة مكانها؛ ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء. إنما هي تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل. وهذا معنى الحديث: "إنما الأعمال بالنيات". الأعمال..لا مجرد النيات![١٠].

وتختلف قيمة العمل باختلاف الأشخاص في الإيمان والكفر، وتتحد قيمة أعمال الكافرين على اختلاف جهدهم واجتهادهم في كونها سرابا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، أو رمادا اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلا قيمة ولا وزن لها في ميزان الله فلا ينفع مع الكفر عمل مهما عظم وكبر أو دق وصغر، كما لا ينفع مع الإيمان عمل عُمِلَ لغير وجه الله.

إن المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة. فمحك الصدق في توبتهم إذن هو العمل الظاهر، يراه الله ورسوله والمؤمنون. فأما في الآخرة فمردهم إلا عالم الغيب والشهادة الذي يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور.

---

[١٠] "في ظلال القرآن".

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف. ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة. فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون!!

أعمالنا بضاعة مكشوفة معروضة على الله ورسوله: فمن الناس من بضاعته رائجة وتجارته رابحة،يباهي بها الله ورسوله وهذا هو المقبول، ومن الناس من بضاعته فاسدة وتجارته كاسدة، يعرض عنها الله ورسوله وهذا هو المخذول.

- (ورثة الله في الأرض) "إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"، والإرث لا يأتي إلا لمن يستحق، فقد عمر الأرض خيراً وهدى، فخصّه الله أن يرثها المتقين، وعباده الصالحين وقد تقرر ذلك عند الرسل "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"، إنهم ورثة الله في هذه الأرض بإقامة دين الله فيها وتطبيقه. وليس هذا محصوراً في أمور الآخرة فحسب، بل هم أولى الناس بالعلوم الأخرى التي يحتاجها الناس لإصلاح أمور دنياهم "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"هود:٦١. فحين يعلم ذلك فلا يبقى في قلب المسلم شاغراً يعطله عن السعي لعمارة الأرض والسعي في إصلاح الدين والدنيا؛ لأنه الوريث الحقيقي بشهادة الحق تبارك وتعالى، وليس لأحد حق سبقه لذلك، إلا إذا تخلى عن خيريته، وهذا محال بإذن من خلق وصيّر وكوّن تبارك وتعالى.
- (المدافعة فالتمكين أو الاستسلام فالجاهلية) قال تعالى: "وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ"الحج:٤٠-٤١. هل يعجز الله أن ينصر دينه؟ هل يصعب على الله أن يمحق الأعداء؟ حاشا وكلا ولكنها سنته الماضية على من قبلنا والتي ستمضي علينا رغماً عنا، وهي المدافعة بين قوى الخير والشر حتى تقوم الساعة، مدافعة للجاهلية مهما كان وزنها وأتباعها؛ لأننا لو تركناها أو تناسيناها ولو فترة زمنية طغت وأفسدت فوجب الدفاع والعمل ولو بالنزال والقتال "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ"سورة البقرة:١٩٣. ما أعظم هذا الوصف "حتى لا تكون فتنة" فبعض ضعاف اليقين يعتقد الفتنة في المدافعة والصراع، وأن القعود والركود هو الذي ينحّي الفتنة، وهذا هو عين

الخذلان وسلم الحرمان، بل الفتنة في القعود، والنزال والدفاع هي التي تدفع الفتنة، فنحن لله تعالى، والله استخدمنا لإقامة دينه وشرعه "ويكون الدين لله" فلا خيار في الخوض في دركات الركود والقعود والله يأمرنا بالتحرك والنهوض. روى الترمذي وأبو داود عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: "وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاحِهَا وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ.[11] وهذه المدافعة تضعف وتقوى حسب أعيانها وليس حسب مناهجهم، فالمنهج واحد والرسالة واحدة، ولكن المدافعين يختلفون، فمتى قووا وأحسنوا كانوا، ومتى توخوا وحذروا وتواكلوا تنكبوا الطريق وزالوا.

- (صلاحية النجوى للعاملين فقط)قال الله تعالى: "لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"سورة النساء:١١٤. النجوى في الأصل حرام، للحديث :"لا يتناجى اثنان دون ثالث، فإن ذلك يحزنه"، وهي مظنة الإثم والقطيعة والعدوان "إنما النجوى من الشيطان"، لكن مع ذلك فهي للعاملين الفاعلين لها خصوصية أخرى؛ ليس كرامة لهم، بل لأنهم وظفوها التوظيف الصحيح، وهذه عادتهم دائما، وهي الاستفادة من الموارد بشكل صحيح قدر المستطاع، فإذا مانظرت إلى نجواهم رأيتهم يبثون روح الحياة بين المتقاطعين، ويحضون على إيواء وتكريم الفقراء والضعفاء من المسلمين، وهم كذلك دائماً في صناعة مشاريع لأفراد المسلمين وعامتهم في هذه النجوى التي كانت أداة شيطانية في أيد القاعدين والمارقين؛ بخلاف هؤلاء الأفذاذ الذين

[11] سنن الترمذي ح ٢٨٩٨ سنن أبي داود ح ٢١٥١.

جعلوها مطية لدينهم واحتياجات أمتهم، وسخروها لوأد خلافاتهم وإعداد مشاريعهم، ونشر الفضيلة والخير والمعروف بين الناس.

- (أحسن القول) " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"فصلت:٣٣. قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن أحسن أيها الناس قولا ممن قال ربنا الله ثم استقام على الإيمان به، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به من ذلك.
- (الرسول في الكتب السابقة) "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"الأعراف:١٥٧. قال ابن كثير: (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر): هذه صفة الرسول في الكتب المتقدمة١٢.
- (الربانيون لا يهنون ولا يضعفون ولا يسكنون) " وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" آل عمران:١٤٦. قال السعدي: أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم.
- (الدعوة والفاعلية ليست حكراً على أحد) "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ"الأحقاف:٢٩. قال السعدي: "وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ" نصحا منهم لهم وإقامة لحجة الله عليهم وقيضهم الله معونة لرسوله صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن.
- (أدنى ثمار الفاعلية الإعذار إلى الله وإقامة الحجة) "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون"الأعراف:١٦٤، وقال سبحانه:"تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨)قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)"الملك. قال ابن كثير: يذكر تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه. وقال

---

١٢ "تفسير ابن كثير"، (٢٨١/٢).

سبحانه: "إن عليك إلا البلاغ"، وقال جل من قائل: "فذكر إنما أنت مذكر". فالداعية الفاعل لا يتوقف مهما كانت التحديات ومهما تلاشت أمام عينيه البركات، حتى أنه قد يدعو ويعمل ليس إلا للإعذار والبلاغ.

- (القيام لا القعود) "قم فأنذر"المدثر: ٢. وفي أضواء البيان: (أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين، كما في قوله تعالى: "وتنذر به قوما لدا" تخويفا لهم. وقد يكون للمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به كما في قوله: "إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب"، وقد يكون للجميع، أي: لعامة الناس كما في قوله تعالى: "أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا". وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة).
- (الاستكثار يولد القعود) "ولاتمنن تستكثر" المدثر:٦. قال سيد: (ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه:(ولا تمنن تستكثر). وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء. ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها. فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه. بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه. فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله. وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله. لا المن والاستكثار)[١٣].
- (التنظير لا يكفي لإحقاق الحق) "وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ" الأنفال:٧. حين أراد المؤمنون قافلة قريش من غير قتال أراد الله أمراً أعظم، وفيه بذل وتضحية ولكن لمرام أعلى من المال ولبغية أسمى من غنى الحال، كانت الشوكة إرادة الله لإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين، وهكذا طريق الدعوات الصادقات لا يحق لها حق، ولا ترسو لها مبادئ دون بذل وتضحية.
- (ربانيتكم في دعوتكم) " لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" المائدة:٦٣.

---

[١٣] "ظلال القرآن"، (ص:٣٧٥٥).

- (المنافقون يأمرون بالمنكر وأنتم تنهون عنه، وينهون عن المعروف وأنتم تأمرون به) "الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"التوبة:٦٧. قال القرطبي: (فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه).[١٤]
- (الإيمان ليس كافياً) "لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)"آل عمران. قال السعدي: فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.
- (عاملون لا متفرجون) "وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون" يونس:١٢١. يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: "اعملوا على مكانتكم " أي: على طريقتكم ومنهجكم، "إنا عاملون" أي: على طريقتنا ومنهجنا، " وانتظروا إنا منتظرون"، أي :فستعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز الله لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم١٥ .
- (عالميون لا محليون) "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"سبأ: ٢٨. قال ابن كثير: وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله أطوعهم لله عز وجل. وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة".

---

[١٤] "تفسير القرطبي"، (٤٧/٤).
[١٥] "تفسير ابن كثير".

- (الحشرات(النمل) والحيوانات(الهدهد) دعاة خير) "حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"النمل:١٨، وقال جل من قائل: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)"النمل.
- (دعاة ولو بلا وسائل) "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ"يوسف:٣٩. فهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يعطينا درساً في أن الدعوة والفاعلية لا تُقيَد بقيود ولا بحدود، ولا يشترط لها وسائل ولا يلزمها أدوات سوى لوازمها المعلومة، وأقامها يوسف وهو مغترب في ظلمات السجن مظلوم مكلوم، فما عذر الطلقاء الأصحاء؟!
- (الموقنون الصابرون مرشحون للإمامة) "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ"السجدة:٢٤. قال السعدي: فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين، تُنَالُ الإمامة في الدين.
- (اللعنة للعالِم الخامد) "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" البقرة:١٥٩. قال السعدي: هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله "مِنَ الْبَيِّنَاتِ" الدالات على الحق المظهرات له،"وَالْهُدَى" وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا الناس ما منّ الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتموه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدتين، كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك "يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ" أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته "وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق،

وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزل الله، مضاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، وهذا يطمسها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

- (الداعية المتحرك لا يحزن) "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"الكهف:٦. قال ابن كثير:أي : لا تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. وقال سبحانه: " أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ"فاطر:٨. قال السعدي: فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء.
- (الدعاة سبب لكشف الفساد) "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ"هود:١١٦. قال ابن كثير: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: "إلا قليلاً" أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيره، وفجأة نقمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" آل عمران: ١٠٤. وفي الحديث: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب" ولهذا قال تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم".
- (المجاهدون المهاجرون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الصابرون على البلاء في طريق الدعوة والجهاد صفات أغلب الموعودين بالجنة في القرآن). "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"البقرة:٢١٨. "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ" البقرة:٢١٤. " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" آل عمران:

١٤٢. "وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" آل عمران:١٥٧. "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ"آل عمران:١٦٩. "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"آل عمران:١٩٥. " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"الأنفال:٧٢. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١)". الصف. "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"التوبة:٧١. "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"التوبة:١١١.

ثانياً: مسالك الفاعلية في السنة:

- (التوكل لا التواكل) قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-:" لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا".رواه ابن ماجه. تمعّن لو لم تغدو الطير هل ستروح بطاناً؟
- (المسؤولية) روى البخاري عن عبد الله بن عمر–رضي الله عنهما– يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها

والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته قال وحسبت أن قد قال والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته"، وهذه المسؤولية تحفز راعيها للعمل والحرص على من استرعاه الله، وليس السكون والبقاء على الأماني دون الفعل. وقال رسول الله —صلى الله عليه وسلم: "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ". ومن حمل على عاتقه هم أمته لن تجده يتسوّل المبادئ!

- (طردية العلاقة بين الخيرية والقوة) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسولُ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "المؤمِن الْقَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إلى اللَّهِ مِنَ المؤْمِنِ الضَّعِيفِ وفي كُلٍّ خيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا ينْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ. وإنْ أصابَك شيءٌ فلاَ تقلْ: لَوْ أَنِّي فَعلْتُ كانَ كَذَا وَكذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قدر اللَّهُ، ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَان". رواه مسلم. العجز دين القاعدين، و(لو) لفظ يلحن فيه العاملين، لذا القوة هنا في الجنان، وخيرها معقود في مهجة صاحبها، وليست في أعضائه. قال النووي — رحمه الله – : (والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات وأنشط طلباً لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك)[١٦].
- (عدم الاعتماد على نجاحات الآخرين) وقد قرر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ البعثة: "يا فاطمة بنت محمد اعملي لنفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئاً".
- (الإيجابية مهما كانت الظروف) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قَامَت السَّاعَة وَ فِي يَد أحدكُم فسيلة، فإن اسْتَطَاعَ أَن لَا يقوم من مَكَانَهُ ،حَتَّى يغرسها فليغرسها".
- (المنافسة والغبطة ليست إلا في البذل والتعليم) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها" متفق عليه.

---

[١٦] "شرح صحيح مسلم"، (١٦ / ٢١٥).

- (عاقبة الاسترخاء الغبن) قال رسول الله–صلى الله عليه وسلم– :"نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ"رواه البخاري. وقال–عليه الصلاة والسلام: "لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيم علم" رواه الترمذي وحسنه الألباني.
- (الجسد الواحد) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمَّى". رواه البخاري ومسلم، وقال –عليه الصلاة والسلام–: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة "، وقال: "فكوا العاني وأجيبوا الداعي"، وقال أيضاً–صلى الله عليه وسلم–: "الساعي على الأرملة أو المسكين كالمجاهد فى سبيل الله" و أحسبه قال: " أو كالقائم أو الصائم لا يفطر". متفق عليه.
- (بث روح المبادرة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بادروا بالأعمال، فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا"رواه مسلم والترمذي وأحمد. قال النووي : معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة والمتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم نوعاً من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمنا ثم يصبح كافراً، أو عكسه – يشك الراوي– وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا التقلب[١٧].
- (الحركة بركة)، ومن ذلك الحض على العمل والإنتاج قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "وما أكل أحدكم خير قط من أن يأكل من عمل يده". وسارت على ذلك أفهام السلف وأعمالهم أيضاً، قال عمر بن الخطاب: "إني لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة فإن قالوا: لا. سقط من عيني". ثم تمعّن في الدعوة الصريحة لاستثمار الأراضي وإعمار الأرض قال –عليه الصلاة والسلام: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له". وهي وإن كانت دعوة لإصلاح أمر الدنيا، لكننا نعلم يقيناً أن إصلاحها عون للعبد في طاعته وعبادته، وهو يتسق تماماً مع وقفتنا السابقة عند قوله تعالى: "هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها"، والمحصلة النهائية هو الفاعلية

[١٧] "شرح صحيح مسلم".

والحركة والجدة في هذه الحياة للدعوة إلى الله باستخدام ما سخّره الله للمسلم من هذا الكون الفسيح لتلكم الغاية النبيلة.

- (نفع الخلق جزاؤه من جنسه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله، لم يسرع به نسبه" رواه مسلم. وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله عزو جل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة- شهرا، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضى، ومن مشى مع أخيه في حاجة يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام"حسنه الألباني، الإسلام يربي أتباعه على الفاعلية في الحياة كاملة (تقديم العون، الحسبة، إدخال السرور، إفشاء السلام، إماطة الأذى، تفريج الكربة، كفالة اليتيم).
- (الاستعاذة بالله من العجز والكسل) قال عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن "البخاري. وما استعاذ رسول الله إلا من شر، فهل وعت عقولنا، وانفتق في أذهاننا خطر القعود والتراخي؟
- (الفاعلية وحسن الخاتمة) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت". رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني وشعيب. نحن ندرك أن حسن الختام أقض منام الصالحين، وزاد من إخبات القانتين، كل ذلك حتى يختم حياته على عمل صالح يموت عليه، وأدنى المراتب ألا يُقبض على ذنب (نسأل الله حسن الخاتمة)، وفي الحديث السابق أن من أراد الله به الخير فإنه يستعمله في صالحات قبل موته، وذلك ما يكون عادة للعاملين الباذلين

المخلصين، فإن ساعات رحيلهم شاهدة على خيريتهم، والسؤال الذي لا بد أن نعرضه بين حين وآخر على أنفسنا (فيم استعملنا الله الآن؟)، وحسب مكانة الفرد منا عند الله يكون مقعده وشغله عند الله، ومتى ابتعد الفرد عن الله يكون قعوده وشغوره عن العمل عند الله. وفي الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر –رضي الله عنه– أحد سادات المسلمين وفضلائهم عبرة وعظة، وهو المعروف بغسيل الملائكة، وإنما قيل له ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن صاحبكم لتغسله الملائكة"، يعني حنظلة، فسألوا أهله: ما شأنه؟ فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهائعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لذلك غسلته الملائكة، وكفى بهذا شرفاً ومنزلةً عند الله تعالى"[١٨].

- (ندرة الفاعلين المباركين) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما الناس كالإبل المائة. لا تكاد تجد فيها راحلة" متفق عليه. ليست المشكلة في الكم إذاً، ولكنها في التكوين الكيفي لذات الفرد، وعلى هذا فقلّتهم دلالة نفاستهم "وقليل من عبادي الشكور"، وقال تعالى: "وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين". ويقابل ذلك مفهوم (الغثائية) الذين أصابهم داء التكلس، فهم كغثاء السيل يدور بهم حيث كانت قوته، ويهيم بهم في كل واد، ويقلبهم على وجوههم أينما حل دوراته، وهكذا يجتمعون كاجتماع الغثاء ويفترقون كافتراقه، لهم جمهرة وحضور ولكن نفعهم غير مذكور–والعياذ بالله–. ولذا فالحديث مشتمل على خبر صادق وإرشاد نافع، فأخبر بأن الكمال في الناس قليل، وإن أردت منهم من عاملاً ثقة قل وندر، وأما الإرشاد فهو لتأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.
- (العمل الساري بعد الموت) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" رواه مسلم. وروى ابن ماجه "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه..". (وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول: أمور عمل بها الغير بسببه وبدعايته وتوجيهه.

الثاني: أمور انتفع بها الغير أيّ نفع كان، على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير.

---

[١٨] "أسد الغابة في معرفة الصحابة".

الثالث: أمور عملها الغير وأهداها إليه، أو صدقة تصدق بها عنه أو دعا له، سواء أكان من أولاده الحسيين أو من أولاده الروحيين الذين تخرجوا بتعليمه، وهدايته وإرشاده، أو من أقاربه وأصحابه المحبين، أو من عموم المسلمين، بحسب مقاماته في الدين، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير، أو تسبب به. وبحسب ما جعل الله له في قلوب العباد من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة التي منها: دعاؤهم، واستغفارهم له.وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف. وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منافع. كالولد الصالح العالم الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكتب التي يقفها أو يهبها لمن ينتفع بها)[١٩].

- (المعروف في نفع الخلق ودفع الشر والضر عنهم) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك في الطريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له"؛ متفق عليه. وروى الترمذي عن أبي ذر –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–قال: "تبسُّمُكَ في وجْهِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ وأمرُكَ بالمعروفِ ونَهيُكَ عنِ المنْكرِ صدقةٌ وإرشادُكَ الرَّجلَ في أرضِ الضَّلالِ لَكَ صدقةٌ وبصرُكَ للرَّجلِ الرَّديءِ البصرِ لَكَ صدقةٌ وإماطتُكَ الحجرَ والشَّوْكَ والعظمَ عنِ الطَّريقِ لَكَ صدقةٌ وإفراغُكَ من دلوِكَ في دلوِ أخيكَ لَكَ صدقةٌ". صححه الألباني. وعن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله" أي الأعمال أفضل؟ قال: "الإيمان بالله والجهاد في سبيله" قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: "أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا" قلت: فإن لم أفعل؟ قال: "تعين صانعا أو تصنع لأخرق" قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك" متفق عليه. وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق. وفي رواية عند أحمد من حديث أبي جري الهجيمي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنا قوم من أهل البادية فعلمنا شيئا ينفعنا الله تبارك وتعالى به، قال: لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وتسبيل الإزار فإنه من الخيلاء والخيلاء لا يحبها الله عز وجل، وإن امرؤ سبك بما يعلم فيك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن أجره لك ووباله على من قال. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. وقد بين العلامة المناوي رحمه

[١٩] "بهجة قلوب الأبرار في شرح الأخبار"؛ لعبد الرحمن السعدي، (ص:١١٣).

الله معنى هذا الحديث وهو يتضمن الرواية الأولى وزيادة، قال[٢٠]: لا تحقرن: أي لا تستصغرن، يقال حقره واحتقره واستصغره، قال الزمخشري: تقول -أي العرب- هو حقير فقير هو حاقر ناقر، وفي المثل من حقر حرم، وفلان خطير غير حقير(من المعروف) أي ما عرفه الشرع والعقل بالحسن (شيئا) أي كثيرا كان أو حقيرا (ولو) قال الطيبي: هذا شرط يعقب به الكلام تتميما ومبالغة، وقال أبو حيان: هذه الواو لعطف حال على حال محذوفة بتضمنها السابق تقديره لا تحقرن من المعروف شيئا على كل حال كائنا ما كان ولو (أن تفرغ) بضم الفوقية وكسر الراء تصب يقال أفرغت الشيء صببته إذا كان يسيل(من دلوك) إنائك الذي تستسقي به من البئر (في إناء) أي وعاء (المستسقي): طالب السقيا يعني: ولو أن تعطي مريد الماء ما حزته أنت في إنائك رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، وتقدم الأحوج فالأحوج، والدلو معروف ويستعار للتوصل إلى الشيء بأي سبب كان قال:

وليس الرزق في طلب حثيث **** ولكن ألق دلوك في الدلاء

(أن تلقى) أي ولو أن تلقى (أخاك) أي تراه وتجتمع به، وفي رواية لأبي داود بدله وأن تكلم أخاك أراد بالأخ المسلم وإن لم يكن ابن أحد أبويه، وقيل له أخوه لأنه لابسه من قبل دينه كما تقول للرجل: قل لصاحبك كذا لمن بينه وبينه أدنى ملابسة، وذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام ذكره الزمخشري وأصله للراغب حيث قال: هو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين أو أحدهما أو الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في قبيلة أو دين أو صنعة أو معاملة أو مودة أو غيرها من المناسبات، ولَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ أي لمشاركتهم في الكفر وقوله: يَا أُخْتَ هَارُونَ يعني في الصلاح لا النسبة.(ووجهك) أي والحال أن وجهك إليه منبسط: أي منطلق بالسرور والانشراح. قال حبيب بن ثابت: من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو مقبل عليه بوجهه، ونظم هذا الحديث كنظم الجمان وروض الجنان. وفيه -كما قال الغزالي- رد على كل عالم أو عابد عبس وجهه وقطب جبينه كأنه مستقذر للناس أو غضبان عليهم أو منزه عنهم، ولا يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الخد حتى يصعر ولا في الظهر حتى ينحني ولا في الرقبة حتى تطاطأ ولا

[٢٠] "فيض القدير"؛ للمناوي.

في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلب، أما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله، ولو كان الله يرضى بذلك ما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ....إلخ انتهى منه بتصرف.

- (اعمل أو حدِّث نفسك عازماً) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من نفاق".البخاري. فقد حث الشرع المطهر على العزيمة النفسية ولو يكن ثمة حاجة قائمة، وذلك لأن نفس المؤمن على أهبة الاستعداد صادقة الطلب عازمة النيل.
- (تعليم الناس الخير يسري ثوابه) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من علم آية من كتاب الله عز وجل كان له ثوابها ما تليت".السلسلة الصحيحة ١٣٣٥.
- (النفع المتعدي والنفع القاصر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟"، قالوا: بلى، قال: "إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة".رواه البخاري.
- (كمال الإيمان في جهاد الأعداء) عن ابنِ مسْعُودٍ رضي اللَّه عنه أَنَّ رسولَ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال : "مَا مِنَ نَبِيٍّ بعَثَهُ اللَّه في أُمَّةٍ قَبْلِي إلاَّ كان لَه مِن أُمَّتِهِ حواريُّون وأَصْحَابٌ يَأْخذون بِسُنَّتِهِ ويقْتدُون بأَمْرِه، ثُمَّ إِنَّها تَخْلُفُ مِنْ بعْدِهِمْ خُلُوفٌ يقُولُون مَالاَ يفْعلُونَ، ويفْعَلُون مَالاَ يُؤْمَرون، فَمَنْ جاهدهُم بِيَدهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جاهدهم بقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، ومَنْ جَاهَدهُمْ بِلِسانِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ، وليس وراءَ ذلِك مِن الإِيمانِ حبَّةُ خرْدلٍ". رواه مسلم.
- (ربان سفينة النجاة) عن النعْمانِ بنِ بَشيرٍ رضي اللَّه عنهما عن النبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: "مَثَلُ القَائِمِ في حُدودِ اللَّه ، والْوَاقِعِ فيها كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ فصارَ بعضُهم أعلاهَا وبعضُهم أسفلَها وكانَ الذينَ في أسفلها إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصَيبِنا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرادُوا هَلكُوا جَمِيعاً، وإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِم نَجَوْا ونجوْا جَمِيعاً". رواهُ البخاري.
- (حق الطريق أن تأمر وتنهى) عنْ أَبِي سَعيد الْخُدْرِيِّ رضي اللَّه عنه عن النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: "إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ في الطرُقاتِ" فقَالُوا: يَا رسَولَ اللَّه مَالَنَا مِنْ مَجالِسنَا بُدٌّ، نَتحدَّثُ فِيهَا، فقال رسول اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِس فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ" قالوا:

ومَا حَقُّ الطَّرِيقِ يا رسولَ اللَّه؟ قال: "غَضُّ الْبَصَر، وكَفُّ الأَذَى، ورَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بالْمعْروفِ، والنَّهْيُ عنِ الْمُنْكَرَ" متفقٌ عليه.

- (الحسبة تقي فتنة الأهل والمال والجار) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" البخاري.
- (الحسبة وجاء ووقاء للأمة من العذاب) عَنْ حذيفةَ رضي اللَّه عنه أَنَّ النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: "والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالْمعرُوفِ، ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّه أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكمْ عِقَاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ" رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.
- (عندما تكون الكلمة جهاداً) عنْ أَبِي سَعيد الْخُدريِّ رضي اللَّه عنه عن النبيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قال: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عندَ سلْطَانٍ جائِرٍ" رواه أبو داود، والترمذي وقال:حديثٌ حسنٌ.
- (الحسبة سبب لجمع القلوب ودحض المنكر) عن ابن مَسْعُودٍ رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "إِنَّ أَوَّلَ مَا دخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّه وَدعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لك، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ وَهُو عَلَى حالِهِ، فلا يمْنَعُه ذلِك أَنْ يكُونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ"، ثُمَّ قال: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَروا مِنْ بنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيَم ذلِك بما عَصَوْا وَكَانوا يعْتَدُونَ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعلُون صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم تَرى كثِيراً مِنْهُمُ يَتَوَلَّوْنَ الَّذينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ" إلى قوله: "فَاسِقُونَ"المائدة : ٧٨،٨١. ثُمَّ قَالَ: "كَلاَّ ، وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بالْمعْرُوفِ، وَلَتَنْهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً، ولَتقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّه بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن.
- (الخيرية ليست في تعلم القرآن الكريم فقط بل التعلم والتعليم) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

- (العمل مهما كلّف عزة والقعود مهما أراح ذلة!) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ" متفق عليه.
- (هداية المرء على يديك أعظم من كنوز الأرض) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر "لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله" فبات الناس ليلتهم أيهم يعطى فغدوا كلهم يرجوه فقال أين علي فقيل يشتكي عينيه فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه، فقال: "أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم" رواه البخاري.

- (الأجر العظيم لصاحب المبادأة) روى مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة فأبطأوا عنه حتى رُئِي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من وَرِقٍ –فضة– ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء".
- (المحتسب هو من يبرئ نفسه ويعذر أمام الله) عند مسلم عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب، وهذا حديث أبي بكر قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أمَّا هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: "مَن رأى منكم منكرًا، فليغيره بيده، فإنْ لم يستطع، فبلسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".
- (طوبى لمفاتيح الخير من الناس) عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: "إنَّ من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإنَّ من الناس ناساً مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه" رواه ابن ماجه.

- (استغفار الخلق للدعاة العاملين) أخرج الإمام أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب". رواه الترمذي وصححه الألباني.
- (عمومية الدعوة) في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"؛ (فحكم عموم دعوته، وكونه مبعوثاً إلى الناس كافة، ودعوته عامة للثقلين الجن والإنس معلوم من دين الإسلام بالضرورة)[٢١].
- (أشجعهم أقدرهم تطميناً) قال أنس –رضي الله عنه–: فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق أناس قبل الصوت فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول: "لم تراعوا لم تراعوا" متفق عليه.
- (اخذل المسلم لتخذَل، وانصره لتنصَر) وروى أحمد وأبو داود عن جابر وأبي طلحة مرفوعا: "ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته".
- (الأفضلية من علِم وعمل وعلّم) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل ما بعثني اله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"؛ جعل الرسول صلى الله عليه وسلم

[٢١] "شرح العقيدة الطحاوية" (ص١١٦)، و"تفسير ابن كثير" (٢٥٤/٢).

الناس في تقبلهم للعمل ثلاث درجات:

أ. الدرجة الأولى: من تقبل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه وعمل بما فيه، وعلم الناس، فهؤلاء هم أفضل الناس لأنهم انتفعوا في أنفسهم ونفعوا غيرهم.

ب ـ الدرجة الثانية: من تقبل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وحمله إلى الناس فانتفعوا به ، لكنه لم يتفقه فيه، وقل اجتهاده في العمل به.

ج ـ الدرجة الثالثة: من لم يستفد مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعمل به أو ينقله إلى الناس، وهؤلاء مذمومون على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

- (مشروعية الترخص للفضائل العظمى) في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فمِنّا الصائم، ومِنّا المفطر. قال : فنزلنا منزلا في يوم حار، وأكثرنا ظِلاً صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصوّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الرِّكاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر".
- (خير المعاش ابتغاء الموت في سبيل الله) روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ".
- (أحباب الله) وفي المستدرك للنيسابوري عن أبي ذر – رضي الله عنه – ، عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – قال: "ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله، أما الثلاثة الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوما فسألهم بالله، ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه، فتخلف رجل من أعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فوضعوا رءوسهم، فقام رجل يتملقني، ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل، أو يفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم" صحيح على شرط الشيخين.
- (من لوازم الحب إسداء المعروف) عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) متفق عليه. من تحلى بهذه الخصلة العظيمة كان مستحقا لدخول الجنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحب

أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه) رواه مسلم. وروي في مسند أحمد عن يزيد القسري قال قال لي رسول الله: (أتحب الجنة قلت نعم قال فأحب لأخيك ما تحب لنفسك). وذلك أنه لما كان المسلم محسنا لإخوانه في الحياة الدنيا مشفقا عليهم حريصا على نفعهم جازاه الله بالإحسان في الآخرة وأدخله دار كرامته.

- (ليس العامل المخلص بالعالة المسترخي) وعند أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، قال: فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قالا: نحن نمشي عنك. قال: "ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما".
- (نبذ الغثائية) عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن" فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت" رواه أحمد وأبو داود وهو صحيح بمجموع طرقه.
- (الاشتغال بأمر الدنيا عن أمر الدين يورث الذل) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم". رواه أبو داود، وهو صحيح لغيره.
- (لجام النار للساكتين عن النفع) روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم علمه ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار وفي الباب عن جابر وعبد الله بن عمرو قال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن.
- (سلامة قلوب العاملين واستمرار دعوتهم) روى البخاري عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قال ابن حجر في الفتح: قوله: (وهو يمسح الدم عن وجهه) يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم ذكر

لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله، وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شج وجهه وجرى الدم منه. فاستحضر في تلك الحالة قصة ذلك النبي الذي كان قبله فذكر قصته لأصحابه تطييبا لقلوبهم.

حاجتنا للفاعلية

إن ديدن المسلم بعد أن يؤمن ويعمل أن يبذل ويقدم قال تعالى :"وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ*إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"، وبالتالي فخسارة الإنسان هي الأصل حتى يؤمن ويعمل ثم يدعو ويصبر على ذلك، فيتحقق في حقه الفوز والنجاة، وليس مطالباً أثناء ذلك بنتائج، بل عليه العمل "إن عليك إلا البلاغ"، وغاية ما في الأمر "اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً"، وأدناه "معذرة إلى ربكم". ولذا فإن حاجتنا تزيد للفاعلية يوماً بعد يوم، حتى أصبحت واجب الوقت، وأولويته إن تزاحمت المهام؛ لبدهيات كثر قد تناولنا بعضها مع النصوص سلفاً، (قال ابن باز: فعند قلة الدعاة، وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كحالنا تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته)[٢٢]. ويضاف في حاجتنا للفاعلية على ما قيل في مسارات الفاعلية:

- أن العمل الإسلامي شرف واصطفاء وخلّة، وأشرف القوم وهم الأنبياء والرسل كانت وظيفتهم الدعوة والعمل لهذا الدين، وتبليغ رسالة الله في الناس، ولذا من كانت وظيفته الدعوة والعمل للدين فهو يقتفي سير الرسل.
- الإجابة عن (لماذا ندعو)؟

١- التعبد لله عز وجل، فبهذه الشعيرة يحب ربه وما يحب ربه، وسيصاحبه الشعور بالعبادة في جميع تحركاته، وكذلك تحري الحق والصواب، اللذان هما شرطا قبول العبادة، وعندما يغفل أنه متعبد لله بدعوته وحركته، فإنه بذلك يضعف إخلاصه، وتبدأ حظوظ النفس والهوى يسيطران على القلب، كما يضعف مع ذلك اتباع الدليل وتحري الحق مما ينتج عنه في نهاية الأمر فتور الداعية أو مزلة قدمة والعياذ بالله.

٢- الفوز برضوان لله تعالى وجنته في الدار الآخرة، وهي ثمرة التعبد، فبها يستسهل الصعاب ويمضي في عزيمة وثبات، ولا يلتفت لأعراض الدنيا الزائلة، ولا تأخذ الدنيا شيئاً منه؛ لأنه

[٢٢] "الدعوة إلى الله وما ينبغي أن يتحلى به الدعاة"، (ص:١٦).

ينتظر العطاء الأخروي، فلا يطرق الوهن له باب، ولا يعرف الفتور عليه مدخل؛ لأن غيرهم متى حصل مراميه الدنيا رضي وقعد، وإن تأخرت عليهم فتر وتوقف.

٣- إنقاذ الناس، فحين يتذكر الداعية هذه المهمة فإنه يضاعف من جهده، ولا يقر له قرار برؤية الشرك المستشري او الفساد المستطير. "وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم ...". وإن مثل هذا الشعور ليضفي الرفق بالناس، والصبر على أعراضهم وأذاهم والحرص على كل مجال يفتح لهم أبواب الخير أو يغلق أبواب الشر، كما ينشئ في القلب محبة المصلحين الداعين إلى الخير وهداية الناس في أي مكان من الأرض، كما أنه يدفع إلى بذل الجهد والتخطيط والتعاون مع جميع الداعين إلى الخير والبر والتقوى بعيداً عن التعصب والحزبية والولاءات الملوثة) [٢٣].

- عظم هذا الدين القويم ومنهجه العظيم الذي يصلح لكلك زمان ومكان، وهو المؤهل لقيادة البشرية، وإصلاح أحوالها، وقد (نجحت الدعوة الإسلامية نجاحاً منقطع النظير، وانتشرت انتشاراً منعدم المثيل؛ لأن منهج الدعوة الإسلامية هو المنهج الوحيد الذي يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى يعرف دروبها ومنحياتها، فيتدسس إليها بلطف ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على استقامة، ويعرف قواها ومقدراتها فلا يتجاوزها أبداً، ويعرف حاجاتها فيلبيها تماماً، ويعرف طاقاتها الأصلية البانية فيطلقها للعمل والبناء)[٢٤].
- أصبحنا (مفعولا به) بعد أن كنا (الفاعل). والأمة تمر بأحلك ظروفها، وهي الآن في أحوج ما تحتاجها لقوم عاملين فاعلين. قال ابن مفلح في آدابه: قال ابن عقيل: إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان ، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم بـ(لبيك)، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة. (وأعداء الدعوة اليوم هم أعداؤها بالأمس الذي ما زالوا يحاولون هدمها والقضاء عليها، ولم يصل الأمر بالمسلمين اليوم، إلى هذا الحد من الضياع والبعد عن الإسلام ودعوته، ولم تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها إلا بسبب تقاعس المسلمين عن الجهاد، وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، ولم تنجح الدعوة اليوم،

---

[٢٣] "منارات في الطريق"؛ لعبد العزيز الجليل، ص:(١٧-٢٠)، بتصرف.
[٢٤] "هذا الدين"؛ لسيد قطب (ص:٢٧).

إلا بالسبب الذي نجحت به على أيدي الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء)[٢٥].

- (القابلية للاستعمار)[٢٦]. (كون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار؛ وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وأما ألا يستخدم وقته في هذا السبيل، فيستسلم-على العكس-لحظة إفقاره وتحويله كماً مهملاً، يكفل نجاح الفنية الاستعمارية: فتلك هي القابلية للاستعمار)[٢٧]. وأزمتنا أنا (لا نفكر إلا عند وجود أزمة)[٢٨]، فلات حين ندم حال الاستعمار وبلوغ الطغيان، ومن هذه الأمة المجيدة رموز قاوموا الاستعمار والفساد وشهد لهم القاصي والداني، ومنهم شكيب أرسلان، واقرأ ما قال عنه الرافعي راثياً[٢٩]؛ لتتجلى لك أنفس الأحرار تجاه الاستعمار:

سلام عليك أبا غالب أمير الجهاد أمير القلم
هتكت برأيك حجب الظلا م وثرت إباء إذا الخطب عم
وطوفت في الأرض تبغي السلا م لقومك والحق ممن ظلم
فخضت الغمار وصنت الذمار وكنت الغمام ومنت العلم
ومازلت تفضح كيد الألى بغوا في البلاد وخانوا الذمم
وترشد قومك للواضحات تنير العقول وتذكي الهمم
إلى أن أصاخ لك المسلمون ولبى نداك أسود الأجم
فآن لجسمك أن يستريح وتهجر روحك دنيا الألم
أصبت بدنياك مجد الخلود وعند الإله الثواب العمم[٣٠]

- العاملون في مجال الحقل الدعوي (أيا كان) لا يلبون حاجة وتطلعات الأمة كماً وكيفاً.

و(تنصرف الأمة على أولئك الذين استطاعوا تجاوز عقبة (نفسي نفسي)، وصارت هموم الآخرين

---

[٢٥] "أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي"؛ لعبد الله آل موسى (ص:٣٥٨).
[٢٦] منشأ هذا المصطلح من (مالك بن نبي) في كتابه "وجهة العالم الإسلامي".
[٢٧] "وجهة العالم الإسلامي"؛ لمالك بن نبي ص:(٩٥-٩٦)
[٢٨] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٣٧).
[٢٩] "عظماؤنا في التاريخ"؛ للرافعي.
[٣٠] "حضارة الإسلام": س٥، ع٤، ٦٥.

هي همهم الأكبر)[٣١].و(تعاني قطاعات من جيل الصحوة اليوم معاناة مريرة من غياب المبادرة الفردية. ولعل من أبرز أمثلتها أن ترى شاباً تربى تربية دعوية، تلجئه ظروف العمل الوظيفي إلى الانتقال من منطقته أو دولته، فيبقى ينتظر أن يوجه، أو يحدد له مجال يعمل فيه دون أن ينطلق ويبادر من نفسه. ومع الحديث اليوم عن ضرورة المبادرة والتأكيد عليها، إلا أنها لا تزال تفهم في إطار محدود!)[٣٢].

- سوء توظيف الطاقات والإمكانات التي ستجعل الأمة قوه منافسة، وما غلب العمل اليوم في هذا الموضوع سوى عدم الاعتراف بالتخصصات، والضعف في توجيه الأفراد المناسبين في أماكنهم المناسبة، لقد غفلوا عن نهج الرسول عليه الصلاة والسلام في معرفته بالرجال حول، وحسن توليتهم، وما هذا إلا لدرايته الكاملة بأن حسن التعيين والاختيار يعد اختصاراً لكثير من الجهود وتذليلاً لكثير من العقبات وتفعيلاً لكثير من الطاقات المهدرة. و(بإمكان الطاقات والخصائص الفذة أن تظل كامنة في الفرد حتى الممات دون أن تكتشف، وسبب عدم اكتشافها هو أنه لم تتح الفرصة لبروزها...ومن ليس أهلاً لتحمل المسؤولية فليس بسبب عيب خلقي ولا تشوه جنيني، ولكنه بسبب قصور اجتماعي وثقافي...إن من مصلحتنا أن نحمِّل المسؤوليات، ونسأل عن التبعات؛ فذاك هو البديل عن الهزال الشديد الذي طبعت به شخصية المسلم هذه الأيام)[٣٣].
- صعود الحضارات وهبوطها يرتبط بفاعلية الإنسان في سلوكياته. وإن تسابق وتهافت شرذمة من الأمة لإبراز الولاء للدول العظمى، وانبهار البعض بذلك، ثم تماهي مبادئهم أمام الحضارات العظمى ليوحي بإشكال كبير في تشكيل العقلية المسلمة، وخاصة أن بعض من عاد من الإبتعاث أو تلوث بالغرب والشرق أصبح يسوّق لحضاراتهم (العفنة منها، وتركوا الجيدّ) وصار بوقاً لغيره، في حين أنه كان يُتطلب منه العكس تماماً. يقول الغزالي-رحمه الله-: (إن الرجل عندنا قد ينال أعلى الإجازات في الطب أو القانون وقد يعين في أعلى المناصب بأوروبا وأمريكا لكن صلته بدينه صفر، وعلاقته بجنسه هواء، على حين يكون زميله اليهودي كالإعصار في خدمة الصهيونية، وزميله النصراني أسرع من البرق في خدمة الاستعمار. فهل هذا المسلم البارد

---

[٣١] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٥٧)، بتصرف.
[٣٢] "تربية الشباب الأهداف والوسائل"؛ لمحمد الدويش (ص:١٢٥).
[٣٣] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٦)، بتصرف.

الشعور أو المرتد القلب يجدي على أمته شيئاً؟ إنه كالجندي المرتزق بسلاحه يخدم أي مبدأ على ملئ بطنه وإيثار عاجلته)[٣٤].

- (العالم الإسلامي اليوم لم يبلغ بعد درجة النشاط أو العمل الفني الذي يبدو وحده كفيلاً بتحديد مكانه في العالم الحديث الذي يحتل مبدأ "الفاعلية" أول درجه في سلم القيم، وهذا المبدأ من أحوج الأمور بالنسبة لنا)٣٥.
- طغيان العقلية الاستهلاكية الإتكالية وتلاشي العقلية المنتجة الفاعلة.
- اقتران الخيرية بالفاعلية، وقد سبق تناول ذلك.
- (اجتمعت الآراء على أن الخلل الذي أصاب الأمة الإسلامية في سعيها نحو النهضة والتقدم انعدام الفاعلية وقلة النشاط والعمل وعدم الاستفادة من الوسائل المتاحة فلم يكن ينقص الفرد المسلم منطق الإخلاص بقدر ما كان ينقص منطق العمل والحركة فهو يفكر ولكن لا ليجسد فكرته في عمل مثمر، وإذا عمل لا يقدم الجهد المطلوب لتحقيق النتائج المرغوبة)٣٦. إن الإنسان الفاعل هو القادر على استخدام الوسائل المتاحة مهما يقل شأنها في صنع شيء لرقمه في الحياة وهذا مرتبط بالثقافة التي يحملها والفكر الذي يتبناه. (وإن كثيراً من الدعاة يريدون تغيير العالم كله دون أن يكون لهم من الأسباب والوسائل ما يغير قرية واحدة!)[٣٧]. وفي المقابل تتأمل جلد الكافر واستخدامه الموارد المتاحة والصعبة كذلك في سبيل دعوته للكفر والضلال، فعلى سبيل المثال (أنشئ مستشفى تنصيري في عام ١٩٦٥م في قرية (معلوم جات) في منطقة (شيتاجانج) في بنغلاديش التي لم يكد يوجد بها نصراني آنذاك، أما الآن فقد بلغ عددهم أربعين ألف نصراني، وهناك منظمة تنصيرية كندية في بنغلاديش يتبعها (٣٠٩٩) مدرسة، وعدد المنظمات التنصيرية في هذا البلد المسلم الفقير (٣٠٠٠) منظمة. وكان عدد النصارى في بنغلاديش عام ١٩٧٢م (٢٠٠)ألف، وارتفع عام ١٩٩١م إلى خمسة ملايين)[٣٨]. (قال ابن باز: فعند قلة الدعاة، وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كحالنا تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته)[٣٩]. (إن كثيراً من الدعاة يجاهد في غير عدو)[٤٠].

---

[٣٤] "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية" لمحمد الغزالي، ص٤٧.
[٣٥] "وجهة العالم الإسلامي" لمالك بن نبي، ص١٦٦.
[٣٦] "فاعلية المسلم المعاصر" لابن عيسى باطاهر، ٣٨.
[٣٧] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٢٥).
[٣٨] "كلنا دعاة"؛ لعبد الملك القاسم، (١٢/١).
[٣٩] "الدعوة إلى الله وما ينبغي أن يتحلى به الدعاة"، (ص:١٦).

- التخلف الحضاري الذي جثم على جسد الأمة الإسلامية فـ(عدد الدول الإسلامية٥٢ والفقيرة ٤٠، والناتج المحلي في ١٣٥ دولة إسلامية يمثل ٧٥% من دولة إنجلترا، أو ١٠%أمريكا، أو١٦%اليابان. ٣٨دولة مسلمة نسبة الواردات على الصادرات بين ١٧٩%و٧٠٠%. ونلحظ في باقي الدول أن صادراتها من المواد الأولية . ٩٠%من المجتمع العلمي في الدول المتقدمة)[٤١]. وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية بدأت من الصفر واليابان بعد النووي وحضارة المسلمين كانت سابقة.
- لخطر العجز والتواكل والقعود؛ ولا يخفى ضراوتها على الفرد للأسباب التالية: (قصر الزمن المتاح، تفاوت الدرجات في الجنة، وأخطرها أن استمراره يؤدي للنكوص)[٤٢]. ومن دام كسله خاب أمله. يقول ابن القيم رحمه الله: والقصد: أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولا بد، فالعبد سائر لا واقف: فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء. وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ ومتقدم ومتأخر وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء،كما قال تعالى:"إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر" ولم يذكر واقفا إذ لا منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة[٤٣].
- لكثرة مظاهر العجز في العمل الدعوي، وكثرة أشكال ذلك وخاصة بين المصلحين لدواعي حقيقية وأخرى وهمية، وقد سئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه[٤٤]. ومن هذه المظاهر: (ترك الدعوة، مواهب غير مستغلة،

---

[٤٠] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٤٣).
[٤١] "المنهج الإسلامي في الانتاج" لمحمد عبد الحليم عمر.
[٤٢] "عجز الثقات" لمحمد موسى الشريف، ص١٥ ص٢٩ بتصرف.
[٤٣] "مدارج السالكين"، (٢٧٦/١).
[٤٤] "إحياء علوم الدين"، (٣١١/٢).

تشوش الأولويات، طعن الثقات في بعضهم، ضعف الثقة، ضياع الأوقات، تفاهة الأهداف، خلف الوعد، تفلت الأهل، وأخيراً الفتن بالأموال)[٤٥].

ثمرات الفاعلية[٤٦]:

بستان الفاعلية يؤتي أكله على الكون بأسره، وسبق الحديث عن الخيرية الملازمة لهذه الأمة، وثمة ترابط بين هذا الموضوع والذي قبله(حاجتنا للفاعلية)؛ وثمة فوارق مهمة جرى تمييز الموضوعين لأجلها، فـ(حاجة الفاعلية) تلامس الواقع وترسم لماذا الفاعلية وخاصة زماننا، و(ثمرات الفاعلية) لعامة ما تثمره الفاعلية على المجتمعات والأفراد. نورد شيئاً من تلك الثمرات:

١- تمنع من الانحراف من الدين، وتصون الشريعة، وتحمي مقاصده، ولذا أمرت الشريعة بإنكار المنكر ولو كلف، وجعلت أعظم الجهاد عند السلطان الجائر الذي يغير على الناس دينهم، لما نذكر الردة دونك ما قال عمر كما صح عنه عن ابن أبي مليكة قال: قال عمر: "والذي نفسي بيده لو أطاعنا أبو بكر لكفرنا في صبيحة واحدة إذ سألوا التخفيف عن الزكاة، فأبى عليهم قال: لو منعوني عقالا لجاهدتهم". فقد كادت هذه الفريضة أن تمحى لولا الله ثم أبي بكر رضي الله عنه، وهاك عبد الملك بن مروان لما صعد المنبر وخطب قبل الصلاة في العيد فأنكر عليه رجل، فقال أبو سعيد الخدري: أما هذا فقد قضى ما عليه، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"رواه مسلم، وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"رواه الترمذي.

٢- تمنع من عذاب الله عز وجل. قال الله تعالى: "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون(١٦٤) فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون(١٦٥)"الأعراف. قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى

[٤٥] "عجز الثقات"؛ لمحمد موسى الشريف، ص: (٣٠-٦٠)بتصرف.
[٤٦] للاستزادة انظر "الإيجابية حياة الأفراد والمجتمعات"؛ لمحمد النادي ص:(١٢-٨٣). وانظر"كلنا دعاة"؛ لعبد الملك القاسم، (٧٤/١-٨٩).

ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا؟ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: "معذرة إلى ربكم" قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقديره: هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك "معذرة إلى ربكم" أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "ولعلهم يتقون" يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم. قال تعالى: "فلما نسوا ما ذكروا به" أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، "أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا" (أي: ارتكبوا المعصية) بعذاب بئيس، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل)[٤٧].

وتأمل قول الحق تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين(١١٦) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١٧)"هود. أي لو ظهرت فئة في القرون السالفة تنهى عما كان من ضلال وغي لكان سبباً لصلاح أحوالهم، وحصانتهم من العذاب، فالمصلح صمام أمان من هلكة قومه، وهو بخلاف الصالح بلاشك. قال سيد – رحمه الله–: "فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال..والاختلال! فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره.. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا

[٤٧] "تفسير ابن كثير".

دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع"[٤٨]. وعند أحمد عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع عديا يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة".

٣- تعمل على تصحيح المفاهيم. وإليك هذا المشهد في عصر النبوة، عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش وقال بعضهم أصوم فلا أفطر، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني". فهذا مفهوم حصل فيه لبس باشره الرسول صلى الله عليه وسلم ليصححه، وعند النظر في واقعنا كم من المفاهيم الخاطئة التس سنسأل عنها والله المستعان لأنا تعامينا عنها، ولربما كانت كلمة واحدة كافية لتصحيح ذلك المفهوم الذي ربما مع الزمن كانت بدعة مضلة.

٤- تمنع من جور الحكام والسلاطين، وعدم بسط الظلم على المجتمعات، ومر معنا حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"رواه الترمذي، وفيه أن أجر الجهاد رُتب أيضاً لمن منع السلطان من جوره وظلمه حفاظاً على دين الناس ودنياهم، وهذا لعمري ثمرة يانعة حين رتب الشارع الأجر المجزي لمن بذل وقدم نفسه لمنع الظلم والجور العام، وقد صدق الأول:

من يهن يسهل الهوان عليه مالجرح بميت إيلام

٥- تحافظ على المجتمع من عوامل الضعف، والانحطاط والتشرذم. عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها يخرجون فيستقون الماء ويشقون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تمرون علينا فتؤذونا، فقال الذين في أسفلها: إن

[٤٨] "في ظلال القرآن"، (١٩٣٣/٤).

منعتمونا فتحنا بابا من أسفلها، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم، نجوا جميعا، وإن تركوهم هلكوا جميعا".

٦- تمنع الأنانية والأثرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه". رواه البخاري ومسلم. وإن من لوازم حب النفس الجبلي النصح له، فكان الإيمان لمن كان نصحه لأخيه المؤمن كنصحه لنفسه، فتأمل معي هذا التشبيه البليغ، كيف تكون ناصحاً لغيرك بنصحك لنفسك، في الدين والمأكل والمركب والمشورة والنصيحة، وغير ذلك، فهذي ثمرة من ثمار الفاعلية حيث تصد بيادق الأنانية وحب الذات، وتحيي روح المحبة والإيثار.

٧- إقامة العدل ومنع الظلم بشتى صوره. عند البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، فقال: رجل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصره إذ كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟! قال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره".

٨- تحمي العرض وتسترد الأرض وتحقق النصر. عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ"[٤٩].

٩- صلاح الاسرة وإحياء مبدأ المسؤولية والتعاون لأفرادها. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، فالأمير راع على الناس ومسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن زوجته وما ملكت يمينه، والمرأة راعية لزوجها ومسؤولة عن بيتها وولدها، والمملوك راع على مولاه ومسؤول عن ماله، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

١٠- لزيادة العمر الإنتاجي للفرد، ولنسأل أنفسنا: (لماذا نعيش؟ لجمع حسنات، وسئل الرسول أي الناس خير ؟ فقال: "من طال عمره وحسن عمله". ومعنى إطالة العمر بين ثلاثة: البركة، الإطالة الحقيقية، وأيضاً الذكر الجميل بعد الموت. والحصيلة :أن يكون هدفنا في إطالة أعمارنا هو استغلال ساعات العمر وثوانيه وتوظيفه لكسب الحسنات)[٥٠]. وهنا

---

[٤٩] رواهُ أبو داود، والنَّسائيُّ، وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ١٤١١.

[٥٠] "كيف تطيل عمرك الانتاجي؟" لمحمد النعيم، ص٢٤ بتصرف.

تكمن مشكلة (الزمن الإنتاجي) الذي يفترض أن يكون أضعاف أضعاف العمر الزمني، فإذا ما عُمر الفرد ٧٠ سنة كانت إنتاجيته ٢٠سنة، وهذا مقت والعياذ بالله، والصحيح أن يكون متوسط الإنتاجي يربو على آلاف السنين، وهذا لا يكون لخامل وقاعد. وتمعن معي في مثال واحد يبرهن لي ولك هذا العمر الزاهي: (كان رباح حبشيا وسبيا، وكان ابنه بلال من مولدي السراة، وكانت أمه حمامة سبية أيضا، وكانت تلقب سكينة، وأسلم بلال قديما في أول ما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بلال يكنى: أبا عبد الله، فصار بلال لامية بن خلف بن وهب الجمحي. وقد سمعت من يقول: إن بلالا من مولدي بني جمح، فكان أمية يخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيلقيه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال والله كذا حتى تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد، أحد، ويضع أمية في عنقه حبلا، ويأمر الصبيان فيجرونه. فمر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه يوما وهو يعذب، فقال له: يا أمية، أما تتقي الله في هذا المسكين؟ فقال أمية: أنت أفسدته، فأنقذه. وكان بلال تربا لأبي بكر، وأحد من دعاه أبو بكر رضي الله عنه إلى الإسلام، فقال أبو بكر: عبدي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك، فأعطيك إياه ثمنا لبلال. قال : قد قبلت. فأعطاه ذلك الغلام، وأخذ بلالا فأعتقه. وصار مولى لأبي بكر رضي الله تعالى عنهما. وعَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: "انْتَهَى بِلالٌ إِلَى قَوْمٍ يَتَنَازَعُونَ فِي أَمْرِ أَبِي بَكْرٍ وَبِلالٍ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ، فَقَالَ : إِنَّمَا أَنَا حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ")[٥١].

١١- تمنع من اليأس، وهذا يعقوب لم تمت نفسه بل استمرت تطلب يوسف حتى لقيه بفضل الله "يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون"يوسف:٨٧.

١٢- متابعة الأنبياء، والسير على طريقهم، "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين"يوسف:١٠٨.

١٣- الاستجابة لله، قال سبحانه: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"آل عمران:١٠٤.

---

[٥١] "أنساب الأشراف"، للبلاذري.

١٤- الأجر العظيم، والثواب الجاري، قال سبحانه: "إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين"يس:١٢. وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: "من دل على خير، فله مثل أجر فاعله"رواه مسلم.

١٥- نيل الهداية والتسديد، قال سبحانه: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين"العنكبوت:٦٩.

١٦- صلاح دنيا ذرياتهم وصلاح آخرتهم أيضاً، قال الله في سبب بناء الخضر الجدار: "وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا "الكهف:٨٢، فكان صلاح الأبوين سبب في ستر الذرية وتسخير الناس لهم، وتدبر قول الله تعالى: "وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا"النساء:٩، وهي موعظة لولي اليتيم، فإذا أراد لذريته من يكون لهم كأبيهم إن فارقهم فعليه أن يتقي الله وليقل قولاً سديداً، ولا شك أن الدعوة عبادة وخطابها قول سديد، والله أعلم.

١٧- الأمن من العذاب، قال المولى تبارك وتعالى: "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ"هود:١١٧.

١٨- الأمن من اللعنة، قال جل من قائل: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون(٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون(٧٩)"المائدة.

١٩- الفوز، قال سبحانه في سورة العصر: "وَالْعَصْرِ(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)". فالأصل في الإنسان الخسر، ولكنه استثنى بالفوز للمؤمن العامل الداعي لدينه.

٢٠- حصول النصر والثبات، قال سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"محمد:٧، ونصرة العبد لربه بامتثاله للشرع ودعوة الناس له فيكن النصر العظيم والثبات القويم.

٢١- صلاح المجتمع بإقامة الشعائر والشرائع عقب التمكين الذي لم يأت إلا بعد صبر ومصابرة وعمل دؤوب، وهو بلا شك (التمكين) ثمرة للفاعلية، وثمرتها مجملة في صلاح المجتمع، قال سبحانه: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور"الحج:٤١.

٢٢- صلاة الله وملائكته عليه، وصلاة النمل والحيتان، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ".

٢٣- حصول النضارة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه".رواه ابن ماجه.

٢٤- محبة الله إذ امتدح عمله،قال سبحانه: "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين"فصلت:٣٣.

٢٥- الاستفادة من الوقت في الخير وحصول أثره في الثبات والتقدم، قال جل وعلا: "لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر"المدثر:٣٧، فليس هناك مكان للتوقف ولو هنيهة، فإن لم تتقدم أيها الإنسان ولو شبر، فأنت جزما تتأخر! وعندما تبحث عن العظماء ستجد أنهم يشتركون في تقديس العامل الزمني، والتفاوت في العطاء والنفع بحسب هذا التقدير.

كيف أكون فاعلاً؟

هذا السؤال بيت القصيد لمن رام العمل لهذا الدين، فإن هذا الدين رسالة ربانية ينبغي فهمها وفهم مرادها على ما يريد الله، وحتى لا يكن ثمة مفارق وغوائل تشذ بصاحب العمل، وتضع من همته، وإن من أوائل تلك المهمات هو:

أولاً: البناء الذاتي؛ فإن البناء له علاقة مع العطاء فكلما كان المسلم أشد بناءً كان أكثر عطاء، وله علاقة بمقاومة التحديات وبذل التضحيات، فكلما اشتد البناء وقوي أساسه أصبح المؤمن أكثر قدرة على مواجهة المصاعب ومقاومة التحديات وبذل أكبر قدر من نفسه وماله، ومن المعلوم أن الصالحين يبنون أنفسهم، والمصلحين يبنون الجماعات، ولذا قالوا: (كان الفضيل رجل

نفسه، وكان أبو إسحاق رجل عامة)[٥٢]. فبناء عن بناء، بناء للنفس، وبناء للنفس وللأمة. (إن الأمة تحتاج اليوم إلى طاقات فاعلة تسهم في إنقاذها وقيادتها، وتعد المحاضن التربوية للناشئة اليوم من أهم ميادين الإعداد الفعلي لهؤلاء الدعاة. وحين يبدأ الإعداد الفعلي لهؤلاء في مرحلة مبكرة فإن ذلك يمكن من استثمار مرحلة البناء الأساسي لشخصية الفرد واغتنام السنين الذهبية، ثم هو يعطي مدى واسعاً لاكتساب المهارات والخبرات الدعوية، وبناء المفاهيم التي يحتاجها الداعية[٥٣]) وأبرز مجالات البناء الذاتي[٥٤]: البناء العلمي، وإذا أطلقنا العلم قصدنا به العلم الشريعة، لأن العلم يقي شبهات الطريق وغوائله، ويعلم به الإنسان السنن، ويقوى به حيال البذل والمقاومة، قال جل من قائل: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، وقال سبحانه: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون"، وقال-عليه الصلاة والسلام-: "إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة في جحرها والحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير". صححه الألباني في صحيح الجامع. قال معاذ بن جبل-رضي الله عنه: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة...". قال عمر-رضي الله عنه-: "تفقهوا قبل أن تسودوا"، أي تعلموا قبل أن تباشروا الناس؛ وكذا كان الرعيل الأول أصحاب العلم والعمل، فعن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" رواه البخاري. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه قال: "كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك..الحديث" البخاري. فلم يمنع ابن مسعود صحبته برسول الله من نيل العلم، ولم تمنع ابن عباس قرابته من رسول الله من نيله أيضاً، ويلفت ذهنك لذلك تلك التضحيات التي يجهد الأولون وألو العلم والفضل فيها أنفسهم رجاء بلوغ العلم، (قال الحافظ محمد بن طاهر المقدسي عن رحلته: بُلتُ

---

[٥٢] "سير أعلام النبلاء" (٤٧٧/٨).
[٥٣] "تربية الشباب الأهداف والوسائل"؛ لمحمد الدويش (ص:١١٢).
[٥٤] "البناء الذاتي وأثره في نهضة الأمة"؛ لعبد العزيز الحسيني.

الدم في طلبي للحديث مرتين: مرة ببغداد، ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافياً في سفري لطلب العلم وعلى الرمضاء المحرقة، فأثر ذلك في جسدي فبُلتُ دماً، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلا مرة واحدة، وكنت دائماً أجعل كتبي على ظهري في أثناء سفري، حتى استوطنت البلاد...)[٥٥]. ويقارن أبو الحسن رضي الله عنه بين العلم والمال، فقال: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال ينقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق. وحريٌّ بالعلم أن يكون قائداً إلى الخشية وتعظيم شرع الله ومعرفة حدوده، وقد ذكر الطبري في تفسيره(قال عبد الأعلى التيمي: إن من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله نعت العلماء "إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً").

ومن مجالات البناء الذاتي: البناء الإيماني، قال الحق: "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"، إن الإيمان والعمل الصالح هو الزاد الحقيقي للفاعل والعامل لهذا الدين العظيم، ألم تر أمر الله لرسوله عليه الصلاة والسلام إبان بداية الداعية "يا أيها المزمل*قم الليل إلا قليلا"؛ لأن صلة العبد بربه هي مظنة التوفيق والسداد والإعانة وهي الماخور الذي يعبر به العبد بحور الشهوات دون أن تصل إليه، فكم ضل عامل لشهوة دنيا عاجلة ظنها مصلحة راجحة، وهكذا كانوا، وانظر رحمني الله وإياك سورة الأنبياء وكيف كان الرسل والأنبياء منذ أن تلهج ألسنتهم بالدعاء فتكن الاستجابة السريعة ليعلل الله جل وعلا ذلك لهم في قوله تعالى: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين"، ولما تنظر لمنطوق الآية ستجد أن المسارعة للخيرات والدعاء والخشية هي سبب الاستجابة المباشرة، فنحن أولى لضعفنا وتقصيرنا، إن ولاية الله لعبده لا تكن حتى يكن، وفي الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه.." الحديث، ولا يعلم أن هناك محتاجاً لولاية الله ونصرته أكثر من الداعية والمصلح إذ تحطمه المحن والآفات وتزرأ به المصائب وتعرقله العراقيل، فكيف له أن يترك هذا الحصن، ثم كيف له أن يدعو لله وهو أجهل الناس بالله لا سيما في علاقة العبد بربه وصلته به، قال ابن كثير عن صلاح الدين الأيوبي: (وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في

---

[٥٥] "تذكرة الحفاظ"، (٥٦٧/٢).

الجماعة. يقال: لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه)[٥٦].

ومن مجالات البناء الذاتي وهو الأخير البناء الدعوي، والدعوة في هذه الأمة لا تنفك منها، قال الله: "يا أيها المدثر*قم فأنذر"، وقال سبحانه: "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين"، البناء الدعوي بناء لثقافة الداعية وأساليبه المناسبة ووسائله القويمة بناء يدعم مشروعه ويرسيه على مرافئ الحياة، وتأمل قول الحق تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"، ومفهوم هذا الآية ظاهر في أن الداعية حين يدرك بيئته ويعلم مدى مناسبة أساليب الدعوة ووسائلها استطاع البيان والتأثير، ومن تلك المهمات أن يعتني بالخبرات والمهارات اللازمة كالحوار، التقنية، الإلقاء، فقه الواقع، فقه السيرة، جهود أهل الباطل، وأيضاَ أصول ومفاهيم العمل الدعوي..إلخ.

والعلاقة طردية فمتى ما زاد فقه الداعية وبنائه استطاع البيان والتأثير بأكثر فعالية.

ثانياً: الإنسان أفكار وسلوك وتطلعات وأماني، ولذا لزم صاحب الهمة التغييرية أن لا يفارق همه وخطراته العمل لهذا الدين والبذل له، فتجتمع أمانيه وهمومه للدعوة والعطاء، وقد اجتمع عبد الله بن عمر وعروة بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال مصعب بن الزبير: أتمنى ولاية العراق، وتزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله. فنال ذلك، وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم، وجهزها بمثلها، وتمنى عروة بن الزبير الفقه –أي: أنه سأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقه الفقه– وأن يحمل عنه الحديث. فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة رضي الله تعالى عنه وعن أبيه[٥٧]. ونرجوا له الجنة، وهنا يظهر أثر ما يعتقد الإنسان ويتمناه على حياته واقعاً وحقاً بإذن الله. فراقب همومك وأمانيك دائماً فعن مالك بن دينار قال: إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله تعالى يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله.[٥٨]. وتيقن دائماً أن تجعل همومك وأمانيك هماً واحداً؛ تفز به إن شاء الله، قال أبو الأعلى المودودي:(إنه من الواجب أن تكون في

---

[٥٦] "البداية والنهاية" (٥/١٣).

[٥٧] "علو الهمة"، لمحمد إسماعيل المقدم؛ وذكره ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعاء بقريب من ذلك.

[٥٨] "الزهد للإمام أحمد"،(ص:٤٥١).

صدوركم عاطفة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين)[٥٩]. قال ابن الجوزي: (ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم ويجتهدون في كل عمل، يثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون).

ثالثاً: القدرة أم الإرادة؟ أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال سوف تبري همة العبد ليكتب بها تاريخ مجد وبذل لهذا الدين. ولو سألنا بعضنا: ماذا لو قدمت مئة ريال لحفظ القرآن في سنة لتعذر الأغلب بعدم قدرته، ولو زدناها لألف ريال لاعتذروا أيضاً، ولكن لو زدناها لعشرة ألف ريال لتحلحل البعض من مكانه حتى إذا قلنا مئة ألف ريال لقام أكثرهم وسعى ودعى، فما رأيكم أن نضع مليون ريال لكل من حفظ القرآن في سنة؟ هل سيبقى معتذر؟ وهل ظروفه التي كانت تحول دون الحفظ سلفاً سيكون لها أثراً؟ بل سيحفظ ويجد ويطوع كل ظروفه لهذا الهدف! فأين السر يا ترى؟ وهل كان فعلاً لا يقدر؟! لا؛ بل إنها الإرداة وكفى، الإرادة هي التي تجعل العسير يسيراً بعد إرادة الله، وهي شرارة العمل وهي العزيمة وتأمل قول الحق تعالى: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً"، وقارنه مع قوله سبحانه: "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.."؛ إنها الإرادات القائمة على دوافع عظيمة، وتختلف هذه الدوافع مثل مليون الحفظ وقد تكون للجاه وقد تكون لغير ذلك، ولكن ياليت شعري من هو الذي كان دافعه رضى الله وكان دافعه نشر هذا الدين وكان دافعه تعبيد الناس لله وكان دافعه جنات عدن..، ولتجددّ فيه عزيمة وإرادة تناطح السحاب وتتقازم أمامها دوافع الشهرة والمال، فلنكذب شائعة ضعف القدرة، ولنصدق خبر الإرادة وأنها هي الفتيل الحقيقي، قال ابن الجوزي: قرأت بخطّه (يعني ابن عَقِيْلِ): إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، فإذا تعطّل لساني من مذاكرة ومناظرة، وبصري من مُطَالَعَةٍ، عملت في حال فراشي وأنا مضطجعٌ، فلا أنهض إلا وقد يحصل لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم في عشر الثمانين، أشد مما كنت وأنا ابن عشرين[٦٠].

---

[٥٩] "العاطفة الإيمانية" لمحمد موسى الشريف، ص١٧.

[٦٠] "لسان الميزان"، (٢٧٩/٤) ، "ذيل طبقات الحنابلة"؛لإبن رجب، (١٢١/٣).

ثالثاً: اقتناص الفرص واهتبال الغنيمة، وإن صاحب الهم الصادق لا يترك ثمة صيد من تلك إلا كانت نهمته فيها.

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل عاصفة سكون

وهذا حقٌ، فالفرص التي تواتي العبد كثيرة من بيئة خصبة وإعلام هادف وعالم رباني وأديب لقن ومثقف حر وحدث يجمع ذلك كله، فكان اغتنام تلك حتى لا يطلبها فيتعسر منالها فضلاً على استحالة عودتها، فكم هم المتأسفون على عدم الرحلة لمحدث أو التفقه من عالم عاصرهم، أو اغتنام إعلام أتاح الفرصة حينئذ، وهكذا.

رابعاً: الشعور بالتحدي وخلق المنافسة. وانظر للإمام مالك بن أنس فلقد جالس مالك العلماءَ ناشئاً صغيراً، ولزم فقيهاً من فقهائهم وعالماً من علمائهم، وكان لهذا قصة تنبئك عن ثمرة الشعور بالتحدي، ذكر الإمام مالك ذلك فقال: كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: (ألهتك الحمام عن طلب العلم!) -وكان يتلهّى بتربية الحمام في مطلع حياته- فغضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية: ثماني سنين) لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمراً، وأناوله صبياناً وأقول لهم: (إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول). وقال ابن هرمز يوماً لجاريته: (من بالباب؟)، فلم تر إلى مالكاً، فرجعت فقالت: (ما ثم إلا ذاك الأشقر)، فقال: (ادعيه فذلك عالم الناس)، وكان مالك قد اتخذ تياناً محشواً للجلوس على باب ابن هرمز يتقي به برد حجر هناك[٦١]. وكان يقول: وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل[٦٢].

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

خامساً: الفاعلية بُعد نفسي لابد فيه من دوافع عليا تعين على المواصلة والصبر والتحمل.

و(الصحة النفسية شرط أساسي لولادة الإيجابية، فلا يمكن أن يكون المرء إيجابياً، وهو يشعر بنوع من (القرف الوجودي) أو الحسد أو الغيرة أو الخمول النفسي أو الحقد على الناس ..)[٦٣].

وأعظم الدوافع استحضار معية لله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) واليقين (إن تنصروا الله ينصركم) وحب الخير للناس (اللهم اغفر لقومي).

---

[٦١] "ترتيب المدارك"؛ للقاضي عياض، (١٣١/١).

٦٢ انظر أيضاً:" الديباج المذهب"؛ لابن فرحون، (٩٨/١-٩٩).

[٦٣] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٥٧).

سادساً: أهمية التنشئة على الفاعلية والتربية عليها من الأسرة والمؤسسات كافة. (وأهم شيء تكوين رجل العقيدة، ذلك الإنسان الذي تصبح الفكرة همه، تقيمه وتقعده ويحلم بها في منامه وينطلق في سبيلها في يقظته، وليس لدينا بكل أسف من هذا النوع القوي والعبقري، ولكن لدينا نفوساً متألمة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد، ولا بد للنجاح من أن يقلب هؤلاء إلى مثل قوية تعي أمرها، وتكمل نقصها؛ ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطاء التي تتعاقب، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم ومراقبة وعد الله ووعيده، والتأسي بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم..)[٦٤].

سابعاً: وازن بين أمور ثلاثة: من أنت (هدفك)، اتجاهك (قدرتك على العطاء)، الحاجة(البيئة الزمانية والمكانية). وإذا نظرنا لهذا المثلث المهم باتزان كان معيناً بعد الله على اختيار العمل المناسب، فيكون صاحبنا هدفه أن يكون فقيهاً، وقدرته في العطاء عن طريق الدروس العلمية للمبتدئين ويرى الحاجة في النائي من شرق أو غرب أي بلد، وهنا تتحقق له بغيته ويتسع عمله ويقوى جده، بخلاف من أخلّ بأحد هذه الموازين، وربما تكون الحاجة أسمى أحياناً لواجب الوقت، ولنأخذ أنموذجاً معاصراً في أستاذ عصره في الدعوة والبذل والعطاء والطموح نسأل الله أن يتقبله وهو عبد الرحمن السميط رحمه الله[٦٥]، ولا أظن مسلماً صادقاً عاصر زمانه وجهله، وتجد أن الرجل كان هدفه دعوة غير المسلمين وقدرته في العطاء عبر الرحلات الميدانية والمحاورات المجتمعية وبناء الأوقاف والمدارس والمعاهد والجامعات واختار القارة السوداء (أفريقيا) ميداناً له رغم الصعوبات في المعيشة والتنقل وتنوع المظاهر المجتمعية والعادات والأعراف واختلاف اللغة، ولكن لأن الحاجة كانت هناك بارزة فقدمها وبذل نفسه وماله وأهله في ذلك حتى لقد كان سبباً في إسلام ما يربو على ١١ مليون مسلم، وكان دؤوباً مجتهداً حريصاً باذلاً حتى ما يدخر من ماله لشراء حاجياته الخاصة، فقد كان له مال زهيد أراد به سيارة تقله وأسرته فلما عزم على ذلك تذكر حاجة أطفال أفريقيا في علاج لهم تعسر ماله فقدمهم على نفسه وأهله، هذا هو تنفس البذل والعطاء حتى أصبح مورد حياة لصاحبه لا يهنأ له عيش دونه، والسؤال هل يعلم رحمه الله أن ذلك العدد المليوني كان سيحصل، لا أظن؛ ولكنه توفيق الله تعالى ثم موازنة هدف الإنسان واتجاهه مع البيئة المحتاجة ستكون كلها كفيلة بإذن الله بعمل مثمر لا يقف.

---

[٦٤] "في سبيل الدعوة الإسلامية"؛ لمحمد أمين المصري، (ص:٣٩).

[٦٥] عبد الرحمن بن حمود السميط، داعية كويتي مكث ٢٩ سنة في القارة السوداء (١٣٦٦-١٤٣٤هـ).

وهذا يأخذنا لأمر هام وهو أهمية الرجل المناسب في المكان المناسب، ولذا فإن توظيف الطاقات في أماكنها المناسبة ووفق الحاجة القائمة، سيجوّد الأثر، ويدفع الأزمات، ويختصر المسافات، وهو منهج نبوي نلحظه في توظيف النبي للطاقات وتغيير البيئات حسب الحاجة البيئية والقدرة البشرية: فبلال مؤذن، ومصعب سفير المدينة، ومعاذ عالم اليمن، وخالد لقيادة الجيش، والإمامة لعمرو بن سلمة على قومه، والإمارة لخباب بن أُسيد بمكة، وكتابة الوحي لزيد وكعب، والأدوار الصعبة لعلي وحذيفة، وخدمته من قبل أنس بن مالك وابن عباس وربيعة بن كعب، ويقاس في ذلك العلماء على الرسل.

ثامناً: التدرج والتوازن في العطاء فلا يكن اندفاعاً ولا تحت ضغظ حالة معينة؛ فـ(اندفاعٌ) بلا تدافع، و(فعلٌ) مبتدأ خير من ردة فعل

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي الهوينى وتجيء الأول

الشعور بالهم ورؤية الحاجة الملحة لا يلزم منها الاستعجال وقفز الدرجات والفردية أيضاً.

وهنا ملحظ أيضاَ في ضرورة الاستقرار النفسي والبعد عن الضغوط الداخلية إذ (العمل الذي يتم إنجازه تحت الضغط والإكراه لا يبلغ أبداً ذروته، والبذل فيه ما يكفي فقط لاستمرار العمل، بالإضافة أنه يرفع من درجة التوتر النفسي، ويولد الحقد والكراهية، والإحجام عن العطاء وتحطيم المعنويات وكسر شوكة النفس. والطريق الآخر لرفع الكفاءة هو العكس تماماً حيث القدوة الحسنة واستخدام الجذب وتوسيع مساحة الراحة النفسية، وحث الآخرين على رسم أهدافه بأنفسهم)[٦٦].

تاسعاً: تمثل وكأنك في جبهة القتال، (كأنك هناك)[٦٧]:

١- النيل من العدو.

٢- العمل الدائم.

٣- صلاح أعمال القلوب.

٤- التدرب المستمر.

عاشراً: من لاح له الأجر هانت عليه التكاليف. وقد ذكرنا بعضاً من أسباب العمل لدين الله وثمرات ذلك أيضاً فمن أدرك الفضائل وعلم المغنم بذل وقدم وكان حاله كحال النضر (إني أجد

[٦٦] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٥٦)، بتصرف.

[٦٧] "جند المعالي" لخليل صقر، ص: (٨٠-٨٤).

ريح الجنة دون أحد)، روى البخاري عن أنس رضي الله عنه، قال: "غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إنِّي أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس كنا نرى، أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" إلى آخر الآية".

الحادي عشر: إذا أردت أن تكون إمامي فكن أمامي. نعم من رام الإمام تقدم وكان قدوة فيما يقول وقد قالوا: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل. قال الأوزاعي: "كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا، فلا يرى أنه يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ". وكان عبد الواحد بن زياد يقول: "ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه".

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

قال ابن مسعود –رضي الله عنه– واصفاً قارئ القرآن الرباني: ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

والناظر لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجد كيف كان أثره ومنهجه الخفي قائم في أصحابه، فقد عرفوا مشيه وهديه وجلوسه وخلقه كل ذلك من هديه لا أوامره، وهكذا العامل المصلح يكون إماماً فيما يدعو، قدوة فيما يعتقد فيحذو الناس حذو ويسيروا مساره، فكثير من الأعمال تنكبوا عنها ظناً باستحالتها حتى يروا الصادقين يثوبون إليها فيتنافسون معهم لها.

الثاني عشر: اختيار رفيقة الدرب المعينة. فقد كانت خديجة رضي الله عنها نعم الزوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرت له كل سبل الدفء العنوي والأمن المعيشي والاستقرار

العاطفي، فبداية من نشأة الدعوة حيث صدح لها "زملوني زملوني"، حتى ماتت رضي الله عنها ولم يتزوج عليها في حياتها إكراماً لذلكم الكيان الآمن الوفي، كانت نعم المؤازرة ونعم الداعمة ونعم المربية، حتى حادثة الحصار وهي في الستين من عمرها لم تسمح لنفسها بالراحة وترك الرسول محاصراً هناك، بل شاركته الهم وخدمته وقدمت له ما يريد، حتى قال لعائشة "والله ما أبدلني الله بخير منها"، نعم الخيرية هنا ليست في الحب وفقط بل في المؤازرة والإعانة والتثبيت والمودة، ولقد أتاها رسول الله (جبريل) يبلغها سلام الله وسلامه لها ويبشرها ببيت في الجنة من قصب لا نصب فيه ولاصخب جزاءً وفاقًا لما قدمته لهذه الدعوة، ولم تذهب ذكراها في كل حين من رسول الله لهذا النبل والصمود، وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بكمال عدد من النساء منهن مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد رضي الله عن الجميع، ولعل من الحكم في ذلك أنهن آووا أنبياء وقاموا خير قيام عليهم فمريم آوت ابنها عيسى عليه السلام وآسيا آوت موسى عليه السلام بمالها وجاهها، وخديجة رضي الله عنها قامت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وواسته بمالها، (إن المرأة تلعب في حياة الداعية بل وفي حياة الناس أجمعين دوراً بالغ الأثر فهي إما أن تكون مصدر نعمة أو مبعث نقمة وفي حياة الدعوة صور عديدة لكلا الحالتين فمن الدعاة من حسن بعد الزواج إسلامهم واستقام خطوهم وكثر إنتاجهم ومنهم من تردت بعد الزواج حياتهم فساء إسلامهم وفسدت أخلاقهم ثم أنطوى ذكرهم عن مسرح الدعوة ووجودها)[٦٨].

الثالث عشر: محاسبة النفس دائما على أبرز مؤشرات الفاعلين، وبحث سبل الوصول إليها وكمالها، ومن أبرز تلك المؤشرات (مظاهر الفاعلين):

١- الشعور بالعزة بهذا الدين.

٢- الحركة الدائمة.

٣- استغلال السنن الإلهية.

٤- البدء بالنفس.

٥- لا احتقار لذرة خير وبذلها.

[٦٨] "مشكلات الدعوة والداعية"؛ لفتحي يكن، (ص:٤٩).

٦- الفرح بإنجاز أي مسلم[٦٩].

٧- التجرد من المنافع الدنيوية. وفي ذلك قال الحق: "اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون".

٨- الحرص على الوفاق والتعاون.

قيود وأوهام:

التحديات والعوائق لا تزول ولا تفنى، ومنها الحقيقي الذي لابد من إزالته والتعامل معه بمنهجية شرعية كالذنوب ونقص العلم وضعف العبادة، ومنها الذاتي: وهو ما كان من النفس ودواخلها، ومنها الخارجي: الأسباب التي تخرج عن الإرادة الذاتية، ومنها مايتعلق بظروف الواقع، ومنها مايتعلق بأزلية الباطل، ومنها الوهمي، وسوف نجمعها هنا على سبيل الإجمال لا الحصر والتفنيد، وقد تعرضنا ربما لبعضها في (حاجتنا للفاعلية)، وسوف نضعها تحت مشرحة الكتاب والسنة ومآثر أجيال الفاعلية، فنبددها بإذن الله، ونزيل عوالقها، ومن هذه العوائق:

- ضعف الصلة بالله، ومقارفة الذنوب والمعاصي، وهجر المحراب، وزيادة الجفوة مع منابع الإيمان، ولذا فمعين الداعية يبدأ من محرابه وعبادته "قم الليل إلا قليلاً، وإذا ما نظرت للجيل الأول لم تفتك مشاهد الإيمان والعبودية المحضة؛ لأنها الزاد الحقيقي "وخير الزاد التقوى"، والمعين الفريد مهما طال البلاء واستطالت اللأواء "وماصبرك إلا بالله". قال الوليد بن مسلم: رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه، يذكر الله حتى تطلع الشمس ويخبرنا عن السلف: أن ذلك كان هديَهم، فإذا طلعت الشمس، قام بعضهم إلى بعض، فأفاضوا في ذكر الله، والتفقه في دينه.[٧٠]وقال ضمرة بن ربيعة: حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة، فما رأيته مضطجعاً في المحمل في ليل ولا نهار قط، كان يصلي، فإذا غلبه النوم استند إلى القتب.[٧١] قال إبراهيم بن سعيد الجوهري: حدثنا بشر بن المنذر قال: رأيت الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع.[٧٢] وكان يحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاء، وكانت أمه تدخل منزلَهُ، وتتفقدُ موضعَ مصلاه، فتجده رطباً من دموعه في الليل[٧٣]. قال ابن المنكدر:

---

[٦٩] "جند المعالي"؛ لخليل صقر، (ص:٦٣).
[٧٠] "سير أعلام النبلاء"، (١١٤/٧).
[٧١] "سير أعلام النبلاء"، (١١٩/٧).
[٧٢] "سير أعلام النبلاء"، (١١٩/٧).
[٧٣] "سير أعلام النبلاء"، (١٢٠/٧).

إني لأدخل في الليل فيهولُني، فأصبحُ حين أصبحُ وما قضيت منه أربي[٧٤]. وعن ابن جريج: صحبت عطاء ثمانيَ عشرةَ سنة، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك[٧٥]. عن نسير بن ذعلوق قال: كان الربيع بن خيثم يبكي حتى يبل لحيتَهُ من دموعه فيقول: أدركنا قوماً كنا في جنوبهم لصوصاً[٧٦].

وقد أثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أطوع الناس لله أشدهم بغضاً لمعصيته، وانظر ما زوّقه سهل التستري عن الصديقين، فقال: أعمال البر يعملها البَر والفاجر، ولا يجتنب المعاصي إلا صدِّيق. وعند النظر لمقولة أبي بكر عن أطوع الناس وهو الصدِّيق، ومقولة سهل التستري عن من هو الصدِّيق تجد الاتفاق بينهما في أنه من اجتنب المعاصي وأبغضها، وياليت شعري لو يعلم العاصي أي بعد من الله أبعدت المعصية صاحبها، وياليت شعري في الداعية لتعبيد الناس لله، كيف يدعو ويخالف، قال ابن مسعود–رضي الله عنه–: إن الناس قد أحسنوا القول، فمن قوله فعله، فذلك الذي أصاب حظه، ومن لا يوافق قوله فعله فذاك الذي يوبخ نفسه. وقد قال أحدهم: أسكتتني كلمة عبد الله بن مسعود عشرين سنة: من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه.

- ضعف التأصيل وتأصيل الضعف، والمقصود بضعف التأصيل: الانطلاق في أمور الدعوة دون تأصيل علمي ورجوع لأصول الشريعة، وسنة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وصحبه الكرام، والاكتفاء بالآراء والتقليد والقياس بلا تمحيص وعرض على أصول الشريعة ومقاصدها و دون أي مستند شرعي. وأما المقصود بتأصيل الضعف: فحين يقع الإنسان في خطأ ما أو مزلق شرعي فتراه يتكلف الاستدلال ويأتي بما لا يصلح، وقصده أن يظهر بمظهر المتقيد بالشرع.
- الإنشغال بالأهل والضيعات، قال الحق :"إنما أموالكم وأولادكم فتنة"، وقال: "إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم"، وهذه التحذيرات لا يلزم منها فسقهم أو كفرهم وعنادهم، ولكن قد يصدون عن الطريق إما لمتعة وإما لاستمالة القلب بالحاجة للفرد وهكذا، وقد سبق الحديث عن ضرورة الزوجة الصالحة مع الداعية لأنها بلا شك

---

[٧٤] "سير أعلام النبلاء"، (٣٥٨/٥).
[٧٥] "سير أعلام النبلاء"، (٨٧/٥).
[٧٦] "الزهد للإمام أحمد"، (ص:٤٦٩).

ستكون خير معين، وستنهج نهج أم الدحداح-رضي الله عنها-، وأما ما كانت ذات أهداف تحتية، وربما حتى أبناؤها تقولبوا على ذلك فلا شك أنها سينشغل بهم عن الخيرية المهداة لنا. (فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له، يبقى أسيراً لها تحكم في وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لاسيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها فإنها تحكم فيه حينئذ، حكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه..)[٧٧]. عن جعفر قال: وسمعت مالكاً يقول: ينطلق أحدهم فيتزوج ديباجةَ الحرم، قال: وكان يقال في زمان مالك ديباجةُ الحرم أجملُ الناس، وخاتونَ امرأةَ ملك الروم، أو ينطلق إلى جارية فقد سمتها أبواها وترفوها حتى كأنها زبدةٌ فيتزوجها، فتأخذ بقلبه فيقول لها: أي شيء تريدين؟ فتقول: خماراً حسني، وأي شيء تريدين؟ فتقول: كذا وكذا، قال مالك: فتمرط والله دينَ ذلك القارئ ويدع أن يتزوج يتيمةً ضعيفةً فيكسوها فيؤجر[٧٨]. ومثل ذلك الإنشغال بالدنيا، وجمع المال، والوظيفة، والولد، وفي الحديث عند أحمد "إن الولد مجبنة مبخلة"، ولفظ ابن ماجه: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فضمهما إليه وقال: "إن الولد مبخلة مجبنة" ، ونفس اللفظ عند البيهقي والحاكم في المستدرك بزيادة "محزنة" وفي الطبراني زيادة "مجهلة"، والحديث صححه الإمام الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وقال الإمام الحافظ العراقي: إسناده صحيح، ومعنى قوله "مجبنة" أي أن الولد سبب لجبن الأب فإنه يتقاعد من الغزوات بسبب حب الأولاد والخوف من الموت عنهم. ومعنى قوله "مبخلة" أي أن الولد سبب للبخل بالمال، ومعنى قوله "مجهلة" لكونه يحمل على ترك الرحلة في طلب العلم والجد في تحصيله لاهتمامه بتحصيل المال له. ومعنى "محزنة" لأنه يحمل أبويه على كثرة الحزن لكونه إن مرض حزنا، وإن طلب شيئاً لا قدرة لهما عليه حزنا، ذكر ذلك الإمام المناوي في فيض القدير. قال عبد الله: حدثني أبي حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالكاً يقول: بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج

---

[٧٧] "العبودية".

[٧٨] " الزهد للإمام أحمد"، ص: (٤٤٨ ـ ٤٤٩).

هم الدنيا من قلبك[٧٩]. وقال تعالى: "فِي بِيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ رَجِالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ". قال سفيان بن عيينة: من أصلح ما بينه وبين الله: أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه[٨٠].

- الأنثوية، ويتعللون بقول الحق: "وإني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى"، وعند النظر فلم تُمنع مريم من العمل بل اتخذت ما يلائمها، ولم تمتنع البتة، (ولقد فهمت المرأة المسلمة وظيفتها في العبودية لله تعالى، ومهمتها في الكون والحياة، ومن ثم استجابت لنداء القرآن الكريم، ودعوة الرسول –صلى الله عليه وسلم– كالرجل سواء بسواء، فضحّت وبذلت وخرجت مراغمة لقومها لعقائدهم، ومهاجرة بدينها، متغربة في البلاد في سبيل الله، محتملة الأخطار متجشمة الأسفار صابرة على المتاعب الجسام، ولن تغيب عن البال هجرتين إلى الحبشة حيث كانت رقية رضي الله عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج عثمان رضي الله عنه أول من هاجر من المسلمين مع زوجها، وتبعتها أخواتها المسلمات مهاجرات مثل أم سلمة المخزومية وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وأسماء بنت عميس، وليلى بنت أبي جثمة، وغيرهن هاجرن مع أزواجهن، فراراً بدينهن، وتضحية في سبيله)[٨١].
- كبر السن وكثرة الصوارف قال تعالى: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" قال الحسن البصري: لم يجعل الله للعبد أجلا في العمل الصالح دون الموت. في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أن ورقة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وإن يُدْرِكْنِي يومُك أنصرْكَ نصراً مؤزراً مع كبر سنه وذهاب بصره، وقد تمنى أن يكون فيها جذعاً قوياً فيكون نفعُهُ أكبرَ وأثرُهُ أكثرَ. وعن أنس: أن أبا طلحة الأنصاري قرأ سورةَ براءة، فلما أتى على هذه الآية: " انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً" قال: أرى ربَّنا عز وجل سيستنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني أي بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر رضي الله عنه حتى مات، ومع عمر رضي الله عنه، فنحن نغزو عنك، فأبى فجهزوه فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرةً يدفنونه فيها إلا بعد سبعةِ أيام فلم يتغير فدفنوه فيها[٨٢]. والنماذج المعاصرة شاهدة ومنها عمر المختار (أسد الصحراء) شيخ الستين عاماً وهو يقارع الطليان(١٨٥٨-١٩٣١)، وكذلك أحمد ياسين معاق يخترق قلوب

---

[٧٩] "الزهد للإمام أحمد"، ص: (٤٤٦ ـ ٤٤٧).
[٨٠] "مجموع فتاوى ابن تيمية"، (٧ / ١٠).
[٨١] "سيرة ابن هشام" (٣٤٤/١).
[٨٢] "الزهد للإمام أحمد"، (ص:٣٥٧).

الصهاينة(١٩٣٦-٢٠٠٤). والكثير من النماذج التي لم يصرفها شيخوخة وإعاقة وولد وزوجة وغيرها.

- الإنشغال بالنقد والتجريح، وهذا يبتلى به القاعد ولاشك، ووالله لو كان له عمل لشغله عن إخوانه، ولو له دين ومروءة لكفت لسانه عنهم، ولو كان له علم ينشغل به لرفعه من الأرض، وحدّه من محارم الله. قال الحسن البصري في وصف أناسٍ مثل هؤلاء لما وجدهم قدِ اجتمعوا في المسجد يتحدثون: إن هؤلاء ملوا العبادة ووجدوا الكلامَ أسهلَ عليهم وقلَّ ورعُهم فتحدثوا، وقال الوليد بن مزيد: سمعت الأوزاعي يقول: إن المؤمنَ يقولُ قليلاً، ويعملُ كثيراً، وإن المنافقَ يتكلمُ كثيراً، ويعملُ قليلاً[٨٣]. قال النسابةُ البكريُّ لرؤبةَ بنِ العجاج: ما أعداء المروءة؟ قال: تخبرني، قال: بنو عمِّ السوء: إن رأوا حسناً ستروه، وان رأوا سيئاً أذاعوه[٨٤]. قال السري السقطي البغدادي: ما رأيت شيئاً أحبطَ للأعمال، ولا أفسدَ للقلوب، ولا أسرعَ في هلاك العبد، ولا أدومَ للأحزان، ولا أقربَ للمقت، ولا ألزمَ لمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة معرفة العبدِ لنفسه، ونظرِهِ في عيوب الناس[٨٥]. وحين (يبادر الفرد للخير، وقد يخفق فيه ويؤدي هذا لمؤاخذة شديدة، لو لم يكن للمبادر فضل سوى الانتصاب بين الأموات لكفى)[٨٦].
- التشتت في تحديد المكان المناسب، والتردد بين عمل وعمل، وكل ذلك يكون تحت ذريعة الحاجة، ولو أنه ذهب لما يتقنه وماهو متخصص فيه لزاد أثره، وزان عمله، وهذا ظاهر في منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وظف الطاقات بشكل سليم، فينبغي على من تشتت أن يدرك نفسه لأنه ذريعة القعود والخذلان، وليبحث عن ذاته. قال ابن القيم: وهاهنا أمرٌ ينبغي التفطنُ له: وهو أنه قد يكون العملَ المعيَّنُ أفضلَ منه في حق غيره، فالغني الذي بلغ له مالٌ كثيرٌ ونفسُه لا تسمحُ ببذل شيء منه فصدقتُه وإيثارُه أفضلُ له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذي يهاب العدوُّ سطوتَهُ: وقوفُهُ في الصف ساعة، وجهادُهُ أعداءَ الله أفضلُ من الحج والصوم والصدقة والتطوع. والعالمُ الذي قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرقَ الخير والشر: مخالطتُهُ للناس وتعليمُهم ونصحهم في دينهم أفضلُ من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح ووليُّ الأمر الذي قد

---

[٨٣] "سير أعلام النبلاء"، (١٢٥/٧).
[٨٤] "مفتاح دار السعادة"؛ لابن القيم، (١ / ١٦٨).
[٨٥] "العوائق"؛ لمحمد الراشد، (ص: ١٤٨).
[٨٦] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٥٨)، بتصرف.

نصبه الله للحكم بين عباده: جلوسُهُ ساعةً للنظر في المظالم وإنصافِ المظلومِ من الظالم وإقامةِ الحدود ونصرِ المحقِّ وقمعِ المبطل أفضلُ من عبادة سنين من غيره، ومن غلبت عليه شهوةُ النساء فصومه له أنفعُ وأفضلُ من ذكر غيره وصدقته[٨٧]. وهذا مثالٌ من السلف الصالح يوضح تفاوتَ الطاقاتِ والقدراتِ: عن بكر بن عبد الله قال: من سره أن ينظر إلى أعلم رجل أدركتاه في زمانه فلينظر إلى الحسن فما أدركنا أعلمَ منه، ومن سره أن ينظرَ إلى أورع رجل أدركتاه في زمانه فلينظر إلى ابن سيرين إنه ليدعُ بعضَ الحلال تأثماً، ومن سره أن ينظر إلى أعبد رجل أدركتاه في زمانه فلينظر إلى ثابت البناني فما أدركنا أعبد منه إنه ليظل اليوم المعمعاني[٨٨]. الطويل ما بين طرفيه صائماً يروح ما بين جبهته وقدمه، ومن سره أن ينظر إلى أحفظ رجل أدركناه في زمانه وأجدرِ أن يؤدي الحديثَ كما سمع فلينظر إلى قتادة[٨٩].

- انتظار اجتماع الأمة، وتوحد جماعاتها، واتفاق كلمتها. و(إن من الكياسة والفطنة ألا نضيع العمر في طلب الإجماع على مسائل لا تقبل بطبعها وحدة الرؤية والطريقة والوسيلة)[٩٠]. و لكن علينا نبذ الخلافات، ودرء الصراعات، وتأخير المساءلات؛ لأنها عادة ما تؤول لأتون الفتنة، وعصا التفرق، و(الخلاف الشخصي إذا طال أمده تحول إلى خلاف فكري)[٩١]. وباتت الدعوات للأنفس والأحزاب على حساب الدين والأمة.
- الخوف من المجتمع أو من آثار العمل، وربما كان التوجس الأمني أحدها وغير ذلك، ولو سكن العظماء لهذه المخاوف لما أدركنا عامنا هذا وثمة مسجد تقام فيه الجماعة قال تعالى: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" قال ابن القيم: ومتى شهد العبدُ أن ناصيتَه ونواصي العباد كلِّها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرفُ فيهم سواهم، والمدبر لهم غيرُهم، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقرُهُ وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له، متى شهد الناسَ كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يعلق أملَهُ ورجاءَهُ بهم، فاستقام توحيدُهُ وتوكلُهُ وعبوديتُهُ، ولهذا قال

---

[٨٧] "عدة الصابرين"؛ لابن القيم، (ص: ٩٣).
[٨٨] اليوم المعمعاني: الشديد الحر.
[٨٩] "كتاب الزهد"؛ للإمام أحمد، (ص:٤٣٣).
[٩٠] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٠١).
[٩١] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:١٩٨).

هود لقومه: "إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[٩٢]. إن من غفلتِكَ عن نفسك، وإعراضِك عن الله، أن ترى ما يسخطُ اللهَ فتتجاوزه، ولا تأمرَ فيه ولا تنهى عنه، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً[٩٣]. روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلا لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ وَلا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ[٩٤]. لذا فالخوف ذريعة وحيلة وهمية في نفس الوقت تقود للسكون والقعود، وكأن من لوازم الفاعلية أن تكن خالية من المخاطر، شحيحة من تقديم التضحيات، وهذا لعمري هو الباطل بحقه، بل لم تقم الدعوات الصادقة على جماجم الرجال، ترويها دماء الشهداء، ويسقون من تصبب عرق العلماء، ويقتبسون نورهم من ظلمة حجر الأغلال. ولذا (علينا أن نفرق بين خسائر نتجت من جراء عقبات الطريق وتكاليفه الطبيعية، وبين خسائر حدثت نتيجة مغامرات غير محسوبة)[٩٥].

قالوا السعادةُ في السكون وفي الخمول وفي الجمود

في العيش بين الأهل لا عيشُ المهاجر والطريد

في المشي خلف الركب في دعة وفي خطو وئيد

في أن تقول كما يقال فلا اعتراض ولا ردود

قلت: الحياةُ هي التحركُ لا السكونُ ولا الهمود

وهي التلذذ بالمتا عب لا التلذذُ بالرقود

هي أن تذود عن الحياض وأي حر لا يذود؟

هي أن تحسَّ بأن كأسَ الذل من ماء صديد

---

[٩٢] "الفوائد"، (ص: ٣٥).
[٩٣] "الجواب الكافي"؛ لابن القيم، (ص: ٤٤).
[٩٤] مسند أحمد ح ١١٠٤٨.
[٩٥] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٤٨)، بتصرف.

- انتظار من يوقظه، فهو يحتج بأنه لم يُمكّن، ولم يُفتح له! ويأتي هذا من بعض من استظل بمظلة معينة يتفيأ تحتها ويسير خلفها، لا يبتدئ عملاً، ولا يتبنى مشروعاً، وربما نسي أقول الحق تبارك وتعالى:"وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً"، وبأنه سيدفن وحدَه ويبعثُ يوم القيامة وحده وسيقفُ بين يدي الله وحده، فيومئذ: "يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ" نسي هذا أنه في مضمار مسابقة. وقد لام الله تعالى القاعدين فقال سبحانه: "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم".

(وأصناف الناس في شأن الهمة أربعة أصناف:

أحدهم: رجل يشعر بأن فيه الكفاية لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائم همته.

ثانيهم: رجل فيه الكفاية لعظائم الأمور، ولكنه يبخس نفسه، ويضع همه في سفاسف الأمور.

ثالثهم: رجل لا يكفي لعظائم الأمور، فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده.

رابعهم: رجل لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها) [٩٦]. قال إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد: ولقد صحبته عشرين سنةً صيفاً وشتاءً وحراً وبرداً وليلاً ونهاراً، فما لقيته في يوم إلا وهو زائدٌ عليه بالأمس[٩٧].قال حماد بن سلمة: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاعُ اللهُ فيها إلا وجدناه مطيعاً، إن كان في ساعةِ صلاةٍ وجدناه مصلياً، وإن لم تكن ساعةُ صلاة وجدناه إما متوضئاً، أو عائداً مريضاً، أو مشيعاً لجَنَازة، أو قاعداً في المسجد، وكنا نرى أنه لا يحسن أن يعصي الله[٩٨]. ذكر جرير بن عبد الحميد: أن سليمان التيمي لم تمر ساعةٌ قطُّ عليه إلا تصدقَ بشيء، فإن لم يكن شيءٌ، صلى ركعتين[٩٩]. ونحن هنا لا نضعف جانب العمل الجماعي، وضرورة الالتحام والتعاون، لكن المصيبة أن يقعد الفرد ويتكلس على نفسه بحجة أنه لم يجد عملاً جميعاً، وهو يحمل علماً وفقهاً، ولو سألته عن محيطه كمسجد وأقربائه بل أهل بيته، لن تجد له أي برنامج معهم، ولو على سبيل المواعظ أو توظيف المناسبات، والله المستعان. (إن كرم العضو واندماجه دون وعي في الجماعة قد يحوله إلى إمّعة أو سلعة للتجارة، وقد يجعله أداة لتكريس الانحراف، ما لم يجمع إلى ذلك اليقظة التامة نحو وظيفته الكاملة داخل جماعته وخارجها. إن من مصلحة أي جماعة أن تربي العضو الذي يجمع إلى الطاعة التبصر والوعي

---

[٩٦] "رسائل الإصلاح"؛ لمحمد الخضر حسين، (٨٧/٢)، بتصرف.
[٩٧] " الزهد للإمام أحمد"؛ (ص: ١١)، "مناقب أحمد"؛ لابن الجوزي (ص:١٤٠).
[٩٨] "حلية الأولياء"، (١٢٨/٣)، " سير أعلام النبلاء"، (١٩٨\٦).
[٩٩] " سير أعلام النبلاء"، (١٩٩\٦).

والإلمام بالمخاطر والمشكلات التي تعاني منها جماعته؛ فذاك هو الضمان الوحيدة لاستمراره وحيويته وبقائه ضمن إطارها)[١٠٠].

- الحساسية من النقد والتقويم. رحم الله عمر رضي الله عنه حيث قال: رحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا! وهذا عمر بن عبد العزيز ـ الخليفة الراشد، التابعي العالم، الزاهد التقي، الإمام القرشي ـ يقول لمولاه مزاحم: إن الولاةَ جعلوا العيونَ على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمةً تَربأُ بي عنها، أو فعلاً لا تحبُّه، فعظني عنده، وانهني عنه[١٠١]. قال بلال بن سعد لصاحبه: بلغني أن المؤمن مرآةُ أخيه، فهل تستريبُ من أمري شيئاً؟[١٠٢]. قال ميمون بن مهران: قولوا لي ما أكرهُ في وجهي، لأن الرجلَ لا ينصحُ أخاه حتى يقولَ له في وجهه ما يكره . قال بعض السلف: من حق العاقلِ أن يضيفَ إلى رأيه آراءَ العلماء، ويجمعَ إلى عقلِهِ عقولَ الحكماء، فالرأي الفذُّ ربما زلَّ، والعقل الفردُ ربما ضل.
- تأطير المكان، وتضييق الخناق على النفس، وبعض من توهم الخير في بقعة دون أخرى قعد في الاثنتين فلا عمل هنا ولاهنا؛ وهذه حيلة شيطانية تأتي من مداخل ومزاعم عديدة، منها أن تلك الأرض خصبة للدعوة، وهذه أجفى ويستدل بهجرة المصطفى –صلى الله عليه وسلم–، وحين نناقشه قائلين: وهل قعد رسول الله في مكة؟ أم كان يعمل وفق المتاح والحاجة، فكان يبني القاعدة الصلبة بتؤدة وطمأنينة فيصنع قادة المستقبل ويعمل على تزكية النفوص، وتنظيم الصف الداخلي، لا يكل ولايمل مع أن قريشاً قد استلت سيفها من غمده وأهوت به على كل عنق مؤمنة، ومع ذلك تبهرك الحماسة التي كان عليها الداعية العظيم –صلى الله عليه وسلم–. إذا السر ليس في مكان، ولا زمان معيّن. قال ابن تيمية: ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان أرضٌ يكون فيها أطوعَ لله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعين أرض يكون مقامُ الإنسان فيها أفضلَ وإنما يكون الأفضلُ في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور، وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان: هلم إلى الأرض المقدسة! فكتب إليه سلمان: إن الأرض لا تقدس

---

[١٠٠] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٣٠).
[١٠١] "عيون الأخبار"؛ لأبن قتيبة، (٢ / ١٨).
[١٠٢] "الزهد"؛ لابن المبارك.

أحداً، وإنما يقدس العبد عمله، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء، وكان سلمان أفقه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا.[١٠٣]

- حب العلو والرئاسة فحين يرى أنه لم يتبوأ مركزاً في الدعوة، يتعاظمُ أن يكون تابعاً لغيره أنفةً وترفعاً وكبراً، وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي والدارمي عَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ صلى الله عليه وسلم: مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ[١٠٤]. قال الفضيل بن عياض: ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكرَ الناسُ أحداً عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تُودِّع من صلاحه[١٠٥]. قال عبيد الله بن الحسن العنبري: لأن أكون ذنباً في الحق: أحبُّ إلي من أن أكون رأساً في الباطل[١٠٦]. قال ذلك حين رجع عن أقوال له خالفت السنة، فقيل له في ذلك وأنك لم تعد في مكانتك السابقة لما كنت على تلك الأقوال.
- تفشي الباطل وانتشار المنكرات قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام، جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار... وقوله صلى الله عليه وسلم: ثم يعود غريباً كما بدأ، أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: "مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ" فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك. وكذلك بدأ غريباً ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمَه الله عز وجل كما كان عمر بن عبد العزيز لما وَلِيَ قد تغرب

---

[١٠٣] "مجموع فتاوى ابن تيمية"، (١٨/ ٢٨٣).
[١٠٤] مسند أحمد ح ١٥٢٢٤، سنن الترمذي ح ٢٢٩٨، سنن الدارمي ح ٢٦١٤.
[١٠٥] "العوائق"؛ لمحمد الراشد، (ص: ٨٨).
[١٠٦] "تهذيب التهذيب"، (٧/٧).

كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر، فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريباً[١٠٧].

- الشك في الطريق، وهذا هو الذي خشيه خبير الفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حينما قال له أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أوصني، قال: إن الضلالةَ حقَّ الضلالةِ أن تعرفَ ما كنت تنكر وتنكرَ ما كنت تعرف، وإياك والتلونَ في الدين فإن دينَ الله واحد.[١٠٨]عن محمد بن سيرين قال: قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: إنكم لن تزالوا بخير ما لم تعرفوا ما كنتم تنكرون وتنكروا ما كنتم تعرفون، وما دام عالمكم يتكلم بينكم غيرَ خائف[١٠٩]. وعن إبراهيم النخعي كانوا يرون التلون في الدين من شك القلوب في الله[١١٠]. وقال مالك: الداء العضال التنقل في الدين[١١١].
- الاعتماد على هزائم القوى المعادية، والتعلق بقشة (التفاؤل المذموم)، ومن الخطأ أن (نعتقد بأن الأخطاء التي وقعت فيها التيارات العلمانية والقومية والاشتراكية قد دفعت بأعداد ضخمة من الناس نحو الاعتقاد بأن الإسلام هو الملاذ الأخير؛ وهذا يعني من جهة ثانية إنه إذا ما ارتكب الدعاة أخطاء فادحة في أساليبهم لطرح دعوتهم، ومعالجة مشكلات بلادهم فإن كثيراً من الكسب الشعبي سوف يتحول إلى غيرهم بصورة بطيئة؛ ليكسب الآخرون أتباعاً وأنصاراً لم يتعبوا في جمعهم، وربما لم يخاطبوهم! هذه الحقيقة تفتح أعيننا على أمرين، الأول: عدم الفرح بانتصارات لم نخض معاركها، وإنما هي نتائج لمعارك خاسرة خاضها غيرنا. والثاني: اليقظة الشديدة تجاه أحاسيس (رجل الشارع) وتقويمه للأنشطة الدعوية المتاحة؛ إذ إن حكمه السلبي سوف يعني على الأمد البعيد انحسار تأثير الجهود الدعوية، واتجاه الناس نحو دعوات أخرى أكثر جاذبية)[١١٢]. وبالتالي لا نكن كلابس ثوبي زور، وأن نبقى نتطلع لهزيمة القوم من السماء، ونعتد بكل سقطة فيهم لصالحنا ما لم تكن ثمة جهود تؤهل لبناء مجتمع ذو مناعة وممناعة أصيلة ومرنة.
- استبطاء النتائج، والضجر من الصبر، والملل من العطاء، مع ضيق في النفس واستعجال لقطف الثمر قبل بدوّها، ويبدو هذا فيمن ابتعد عن قراءة سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قال

---

[١٠٧] "مجموع فتاوى ابن تيمية"، (١٨ / ٢٩٥ –٢٩٧).
[١٠٨] "الإبانة"، (١ / ١٨٩ – ١٩٠).
[١٠٩] "الإبانة"، (١ / ١٩٠ – ١٩١).
[١١٠] "الإبانة"، (٢ / ٥٠٥).
[١١١] "الإبانة"، (٢ / ٦٠٥).
[١١٢] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٤٧).

تعالى:"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ"، وربما أنه جاهل بسنن الله جل وجلاله. (إن وعد الله تعالى بالتمكين لا يتخلف، لكنه لن يتحقق أبداً على أيدي أقوام لا يستحقونه، ولا يفهمون سننه، ولا يضحون من أجله)[١١٣].

قال ابن القيم: وطالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً، حاكماً على وهمه، غيرَ مقهورٍ تحت سلطانِ تخيله، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه، عاشقاً لما توجه إليه، عارفاً بطريق الوصول إليه، والطرقِ القواطعِ عنه، مقدامَ الهمة، ثابتَ الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لومُ لائم ولا عذل عاذل، كثيرَ السكون، دائمَ الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضاتُ، شعاره الصبرُ وراحته التعب[١١٤]. قال ابن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت[١١٥]. وهذا الإمام القدوة شيخ الإسلام ثابت البناني يقول: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة[١١٦]. روى منصور بن إبراهيم قال: قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلا بكلمة تصعد، وعن بعضهم قال: صحبت الربيع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعاب[١١٧]. قال مالك: كان إمام الناس عندنا بعد زيد بن ثابت عبد الله بن عمر، مكث ستين سنة يفتي الناس[١١٨]. قال الإمام القدوة ربيعة بن يزيد: ما أذن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً[١١٩]. كان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له: (الصفي) لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة[١٢٠]. وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، وقد أم أهل حمص ستين سنة كاملة فقال: ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله[١٢١]. قال إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد: ولقد صحبته عشرين سنة صيفاً وشتاءً وحراً وبرداً وليلاً ونهاراً فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس[١٢٢]. وقال

---

[١١٣] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:٢٧٥).
[١١٤] "الفوائد"، (ص: ١٩).
[١١٥]" سير أعلام النبلاء"، (٣٥٥/٥).
[١١٦]" حلية الأولياء"،(٣٢١/٢) ، وسير أعلام النبلاء، (٢٢٤/٥).
[١١٧] "سير أعلام النبلاء"، (١٤ ٢٥٩).
[١١٨]" سير أعلام النبلاء"، (٢٢١/٣).
[١١٩]" سير أعلام النبلاء" (٢٤٠/٥)
[١٢٠] "تهذيب التهذيب"، (٤٤٧/١).
[١٢١] "تهذيب التهذيب"، (٤٢٤/٨).
[١٢٢] " الزهد للإمام أحمد"، (ص: ١١)، "مناقب أحمد"؛ لابن الجوزي. (ص:١٤٠).

أبو الوفاء بن عقيل: إني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة. قال ابن القيم: يا مخنث العزم أين أنت والطريق، طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسفُ بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيدُ الحصورُ يحيى، وقاسى الضرَّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم، تزهى أنت باللهو واللعب[١٢٣].

- الاتكالية وإلقاء المسؤولية على عاتق الغير، والشعور بأن الدعوة والعمل لدين الله من فضول الأعمال. ومن مظاهر التهرب من المسؤولية:

١- التخاذل: اعتذارات ومسوغات.

٢- التخذيل: "الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل".

٣- التهوين: يقلل دواعي العمل.

٤- التهويل: تضخيم المعوقات.

٥- التواضع الكاذب: والمصيبة من لسان حاله: إن هذه الأعمال لا يصلح لها غيري، ومع ذلك فلن أقوم بها)[١٢٤]. قال ابن القيم: ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثرُ الديّانينَ لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عمومُ الناس، وأما الجهادُ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس ديناً، وأمقتهم إلى الله: من ترك هذه الواجباتِ، وإن زهد في الدنيا جميعِها، وقلَّ أن ترى منهم من يُحمرُ وجهُه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحابُ الكبائر أحسن حالا عند الله من هؤلاء[١٢٥]. قال الشاطبي: يقال: أنه – أي فرض الكفاية – واجب على الجميع على وجه من التجوز، لأن القيام بذلك الفرضِ قيامٌ بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة وذلك من كان أهلا لها، والباقون

---

[١٢٣] "الفوائد"، (ص:٥٦).

[١٢٤] "الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها"؛ لمحمد الحمد، ص:(٣٢-٣٤)، بتصرف.

[١٢٥] "عدة الصابرين"، (ص: ١٢١).

وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادراً على الولاية فهو مطلوبٌ بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطلوب بأمر آخر، وهو إقامةُ ذلك القادر وإجبارُه على القيام بها، فالقادر إذن مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر، إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به[١٢٦].

٦- تقسيم الناس وفق هواه، واعتقاده نفعية الدعوة في صنف دون صنف، وقد عاتب الله نبيه في ذلك :"أما من جاءك يسعى وهو يخشى *فأنت عنه تلهى"، وهذا العتاب مفاده أن الاختيار ليس لك أيها الداعية، فمؤشرات لن تعدو أن تكون أوهام وربما بنيتها على ضعف تصور وقصور بشري ملازم لك، فلا عليك سوى البذل والدعوة والنتائج على الله تبارك وتعالى. إن أي دعوة تهمل شريحة من المجتمع تعتبر ناقصة ومآلها إلى الانحسار، وقد تميزت الدعوة الإسلامية باحتوائها جميع طبقات المجتمع، وتوظيفِ جميع طاقات، فليس في المجتمع المسلم عنصرٌ مهملٌ أو مبعد أو مركون مهما كان. وإن من كمال الدين وعالميته مخاطبته للجميع وتوظيف جميع أفراد الأمة فلا اعتبار للصور والهيئات والأشكال: عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتَضَعّف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُل جوّاظ مستكبر متفق عليه[١٢٧]. وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة متفق عليه.[١٢٨]وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رب أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره[١٢٩] .وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأْيُكَ

---

[١٢٦] "الموافقات للشاطبي"، (١ / ١٧٨-١٧٩).
[١٢٧] صحيح البخاري ح ٤٥٣٧ ، صحيح مسلم ح ٥٠٩٢.
[١٢٨] صحيح البخاري ح ٤٣٦٠ ، صحيح مسلم ح ٤٩٩١.
[١٢٩] صحيح مسلم ح ٤٧٥٤.

فِي هَذَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا[١٣٠].

٧- الفهم السقيم لمقاصد الشريعة، والتعاطي الخاطئ مع مضمونها. قال تعالى: "عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ" قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأدي الواجب من الأمر والنهي وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة: أحدها: أن لا يخافَ المؤمنُ من الكفار والمنافقين، فإنهم لن يضروه إذا كان مهتدياً. الثاني: أن لا يحزنَ عليهم ولا يجزعَ عليهم، فإن معاصيَهم لا تضره إذا اهتدى، والحزنُ على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ". الثالث: أن لا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: "لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ"، فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألمُ عليهم ومنهم، إما راغباً وإما راهباً. الرابع: أن لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضرُّك من ضل إذا اهتديت، كما قال: "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ" الآية، وقال: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"، وقال:"فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ "، فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يعتدون حدود الله إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكارُ على الكفار والمنافقين الفاسقين والعاصين. الخامس: أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخلٌ في قوله: " عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ "، وفي قوله: "إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"، فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيها المعنى الآخر، وهو: السادس: إقبال المرء على مصلحة نفسه علماً وعملاً،

---

[١٣٠] صحيح البخاري ح ٥٩٦٦.

وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ولا سيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه، ولاسيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة. وكذلك العمل فصاحبه إما معتدٍ ظالمٌ، وإما سفيهٌ عابثٌ، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ويكون من باب الظلم والعدوان. فتأملُ الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة: علماؤها وعبادها وأمراؤها ورؤساؤها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن، محنة أحمد وغيره، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة، وكما يبغي بعض المستنة إما على بعضهم وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف المذكور في قولهم: "رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا". وإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها، فما أحسن ما قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر: غلوٍّ أو تقصيرٍّ . فالمعين على الإثم والعدوان بإزائه تاركُ الإعانة على البر والتقوى، وفاعل المأمور به وزيادةٍ منهيٍّ عنها بإزائه تاركُ المنهي عنه وبعضِ المأمور به، والله يهدينا الصراط المستقيم ولا حول ولا قوة إلا بالله[١٣١].

٨- اعتقاد الخيرية في العزلة، والبعد عن العامة، وهذا وهم خطير يصيب فئاماً من الناس بأوهام كثيرة، فربما يحدث نفسه بضرورة العلم الذي يلزم للدعوة، أو ضرر الناس على عبادته وإصلاح أهل بيته، وربما أتته العبرات تناديه بضرورة الزهد والورع عن الدنيا وحظ النفس في قلوب الخلق، وكل هذا من لوازم الداعية، ومتطلباته الأساسية، و(إن اعتزال الناس بين الفينة والفينة يصقل الروح، ويجدد الرواء، ومن يفعل ذلك فربما يكون في وقت عزلته في خدمة الناس أكثر مما لو اختلط بهم؛ ومن الملاحظ أن الناس حين

[١٣١] "مجموع فتاوى ابن تيمية"، (١٤ / ٤٨٠-٤٨٣).

يصيبهم كرب أو أزمة فإنهم كثيراً ما يلجأون إلى أولئك (المحتشمين) ينشدون لديهم الرأي والتعاطف والعون)[١٣٢]. فاجعل بينك وبين دعوتك مسافة ليكن تأثيرك أعظم؛ ولكن عادة ما تأخذ هذه العزلة في جسد القاعد وقتاً فترتاح وتابى الانصراف، وربما استرسل معها حتى ازدان قعوده وتجمل له في صورة الخلوة والورع. يروي لنا التابعي الكوفي، الفقيه النبيل عامر الشعبي: أن رجالاً خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريباً يتعبدون، فبلغ ذلك عبد الله بن مسعود، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد. فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا[١٣٣]. قال ابن الجوزي: وعلى الحقيقة الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعة وإتباع جنازة وعيادة مريض، إلا أنها حالةُ الجبناء. فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام[١٣٤].

حسبوا بأن الدين عزلةُ راهب واستمرءوا الأوراد والأذكارا

عجباً أراهم يؤمنون ببعضه وأرى القلوب ببعضه كفارا

والدين كان ولا يزال فرائضاً ونوافلاً لله واستغفارا

والدين ميدان وصمصام وفر سان تبيد الشر والأشرارا

والدين حكم باسم ربك قائم بالعدل لا جوراً ولا استهتارا

٩- الخوف على الوجاهة والمستوى الاجتماعي. وهذا عائق عند البعض، والحقيقة أنها فرصة للبذل والتقديم لدين الله، قالت فاطمة بنت عبد الملك تصف زوجَها عمرَ بن

[١٣٢] "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي"؛ لعبد الكريم بكار (ص:١٣٦).
[١٣٣] "الزهد"؛ لعبد الله بن المبارك، (ص: ٣٩٠).
[١٣٤] "صيد الخاطر"؛ لابن الجوزي، (ص: ٢٢٤).

عبد العزيز: كان قد فرغ للمسلمين نفسَهُ، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومَهُ بليلته[١٣٥].

١٠- اشتراط المؤهلات الأكاديمية والتجربة الطويلة والاعتداد بسنوات الخبرة، وهذا لاشك إن قلنا أننا نريدك مفتي الأمة وعالمها ومجددها، أما الاعتذار عن تعليم علم أو تذكير بخير، أو عمل ميداني لإغاثة المسلمين فهذا العائق لاشك أنه واهٍ ومردود، قال تعالى: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا"سورة مريم:١٢. عن مالك بن الحويرث-رضي الله عنه- قال:"أتينا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيماً رفيقاً فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتموني أصلي فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم"[١٣٦].

١١- مجالسة الكسالى والقاعدين. فرّ منهم فرارك من المجذوم، ومن جالس الأجرب جرب معه، وهؤلاء لا تجدهم إلا في مستنقعات الفراغ وأوحال الأنانية. قال بعض أصحاب عمر بن عبد العزيز القدامى لعمر: لو تفرغت لنا فقال: وأين الفراغ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله[١٣٧].

١٢- اتهام الذات بالفشل؛ ونشأة ذلك من ردة فعل من عمل سابق، أو مبادرة فشلت، أو توجه لا يلائمه، وهذا لا يلزم منه أن يحكم على نفسه بالفشل والسوء. (وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الناس، فقد يتوجه لمجال لا يلائم ميوله، ولا يناسب مواهبه، ومن هنا فلن تجد له إبداعاً، ولا تفوقاً. فإذا حوّل إلى ما يناسبه، ووجه إلى ما يلائمه أبدع أيما إبداع؛ فلا يعني كوننا لانبدع في كل شيء أننا لا نصلح لأي شيء)[١٣٨].

وأختم بكلام فريد لسيد –رحمه الله-: (والدعاة إلى الله يعلمون أن مصائر البشرية كلها ـ في الدنيا وفي الآخرة ـ منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة.

---

[١٣٥] "سيرة عمر"؛ لابن عبد الحكم، (ص: ١٤٦).
[١٣٦] البخاري ح٦٣١.
[١٣٧] "طبقات ابن سعد"، (٣٩٧/٥).
[١٣٨] "قوة الإرادة وطرق تنميتها"؛ لصالح مراد (ص:٣٤).

إنه الأمر الهائل العظيم.. أمر رقاب الناس.. أمر حياتهم ومماتهم.. أمر سعادتهم وشقائهم.. أمر ثوابهم وعقابهم.. أمر هذه البشرية، التي إما أن تبلغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد في الدنيا والآخرة. وإما أن تبلغ إليها فترفضها وتنبذها فتشقى في الدنيا والآخرة. وإما ألا تبلغ إليها فتكون لها حجة على ربها، وتكون تبعة شقائها في الدنيا وضلالها معلقة بعنق من كلف بالتبليغ فلم يبلغ!

فأما رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل.. وهم لم يبلغوها دعوة باللسان وفقط، ولكن بلغوها –مع هذا– قدوة ممثلة في العمل، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق.. سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك، وضلالات تزين، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خاتم النبيين؛ بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات.. فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" وبقي الواجب الثقيل على من بعده.. على المؤمنين برسالته.. فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجيء بعده –صلى الله عليه وسلم– وتبليغ هذه الأجيال منوط –بعده– بأتباعه. ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة تبعة إقامة حجة الله على الناس؛ وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا إلا بالتبليغ والأداء.. على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأدى..فالرسالة هي الرسالة؛ والناس هم الناس.. وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات.. وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس ودون الدعوة؛ وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة.. الموقف هو الموقف؛ والعقبات هي العقبات، والناس هم الناس. ولا بد من بلاغ، ولا بد من أداء.. بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعية لما يبلغون.. وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة؛ وتفتن الناس بالباطل وبالقوة.. وإلا فلا بلاغ ولا أداء..إنه الأمر المفروض الذي لا حيلة في النكوص عن حمله.. وإلا فهي التبعة الثقيلة. تبعة ضلال البشرية كلها؛ وشقوتها في هذه الدنيا، وعدم قيام حجة الله عليها في الآخرة! وحمل التبعة في هذا كله، وعدم النجاة من

النار..فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة؟ وهي تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل؟!)[١٣٩].

وقد ذكرنا مع كل قيد ووهم ما يفل عقدته بإذن الله، ونؤكد أيضاً في مقاومة هذا العوائق بالتالي:

- الاستعانة بالله ومتابعة الدعاء بالهداية والسداد كما صح ذلك عن رسول الله. وقد قال ابن مسعود: إذا أراد الله بعبد خيراً سدده وجعل سؤاله عما يعينه وعلّمه فيما ينفعه[١٤٠]. وقد ذكر الماوردي[١٤١]: أن الأقدار الغلابة لا تأتي بالمغالبة، وقد قصد أن هداية الله للإنسان تقيه الانبتات دون مسير وثمرة، ثم قال رحمه الله: ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسئول، وأفضل مأمول، أن يحسن إلينا التوفيق فيما منح، ويصرف عنا الرغبة فيما منع؛ استكفافا لتبعات الثروة، وموبقات الشهوة. زهذا لعمري من أبلغ الدعاء وأوجزه.
- دفع الذنوب وخواطرها، فإن لها شؤم على الفرد والمجتمع، قالت عائشة رضي الله عنها: أقلّوا الذنوب، فإنكم لن تلقوا الله بشيء أفضل من قلة الذنوب. والإنسان خطاء وجُبل على الذنب والخطأ ولكن المؤمن ديدنه الأوبة والاستغفار، فلا يأتيه الشيطان إلا مساً دون تمكن ولا يستقله رحولاً بل يطوف كالثعلب، ولكن سرعان ما يفوق المؤمن ويسترجع قوته "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"، فالمؤمن الحصيف يتبع السيئة الحسنة مباشرة كما في الخبر "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها.."الحديث؛ فهي بلا شك تذهبها وتزيلها قال جلّ من قائل سبحانه: "إن الحسناتِ يذهبن السيئات". وقد قال أبو عبيدة –رضي الله عنه–: التهلكلة: أن يذنب العبد ذنباً ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك.
- ترك الأوهام وعدم الالتفات للعقبات، وقد قالوا أصدق ما قالت العرب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قيمة المرء فيما يحسن، وذكر ابن تيمية أن ذلك بحق العامة، وأما الخاصة فقيمة المرء عندهم فيما يطلب. والمحدق يجد البون بين اللفظين، وبالتالي فإن العامل حين يطلب ويقاوم ويصارع دون الرضوخ لأي عائق تكن قيمته سامية ومرتبته سامقة وخطوته سابقة.

---

[١٣٩] "الظلال"، ص(٨٠٩-٨١٠).
[١٤٠] "الإبانة"، (١ / ٤١٩).
[١٤١] "أدب الدين والدنيا".

- العيش في بيئات المصلحين. وهذا السر في قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما يأكل الذئبُ القاصية".رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وقد كان السلف الصالح لا يراهنون على إخوانهم أبداً حتى وصل بهم الأمرُ أن يقرنوهم بالصلاة في أهميتها وعظمها. عن محمد بن واسع قال: ما بقي في الدنيا شيءٌ ألذُّ به إلا الصلاةَ جماعة ولقيا الإخوان[١٤٢]. وقال الحسن البصري: لم يبق من العيش إلا ثلاثٌ: أخٌ لك تصيب من عشرته خيراً، فإن زغت عن الطريق قومك، وكفافٌ من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاةٌ في جمع تُكفى سهوَها، وتستوجب أجرَها[١٤٣]. قال الحسن البصري عن المؤمن: هو مرآةٌ، إن رأى منه ما لا يعجبه: سدده وقومه ووجهه، وحاطه في السر والعلانية[١٤٤]. وقال عمر بن عبد العزيز: من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته، وأدى واجبَ حقه...[١٤٥]. ولذا فإن من معاني البيئات الصالحة المصلحة دفع الإنسان لمعالي الأمور والأخذ بيده إذا أصابه الفتور، بخلاف بيئة التثبيط والتحبيط وقد قال طلحة رضي الله عنه: لا تشاور بخيلاً في صلة، ولا جباناً في حرب. وقد صدق الفاروق رضي الله عنه: لا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره.
- توطين النفس على العمل مع الطوارئ والأزمات والاستعداد للعمل في أي بيئة، وهذا يجعل في النفس مرونة في التعاطي مع الأحداث الراهنة وإعادة التأطير الإيجابي لأي معضلة.
- الإطلاع والقراءة في سير الأنبياء وآثار السلف وقصص الفاعلين فإن لها أنموذجاً وهدياً للعامل، يقيس عليها نفسه، ويرفع إليها سقفه. قال الإمام ابن حزم عن نفسه: (كانت فيّ عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم والأفاضل من الحكماء في الأخلاق، وآداب النفس حتى أعان الله عز وجل)[١٤٦].
- البداية المحرقة والحاضرة؛ قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة. ومن لازمها التدرج بلا ريب، وهي لا تعني الاستعجال بطبيعة الحال، ففاعلية لا انفعالية، وقد يصيب بعض الأخيار القعود والإحباط حين يرى القوم بذلوا وقدموا فنالوا وحصّلوا فيكلّ ويملّ ويجفل! وابن القيم يرسم هذه الوصية القيّمة: "فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس

---

[١٤٢] " الزهد للإمام أحمد"، (ص: ٤٤٠).
[١٤٣] "تاريخ بغداد"، (٩٩/٦).
[١٤٤] "الزهد لابن المبارك"، (ص: ٢٣٢).
[١٤٥] "تاريخ الطبري"، (٦ / ٥٧٢).
[١٤٦] "الأخلاق والسير"، ص:(٣٣-٣٤).

الدرج، كم خاض بحراً ملحاً حتى وقع بالعذب! وكم تاه في مهْمهٍ قفرٍ حتى سمى بالدليل! وكم أنضَّ مراكب الجسم! وفض شهوات الحس! وواصل السرى. ليلاً ونهاراً. وأوقد نار الصبر في دياجي الهوى"[١٤٧].

نماذج من الفاعلين:

تساؤلات:

١- من الذي دخل في صراع مع الشرك وأربابه؟

٢- ومن الذي نشر الإسلام و ماجاء به من الهداية والحق والعدل والخير؟

٣- دماء من سالت في سبيل إنقاذ الإنسان المسحوق لعبادة غير الله؟

٤- من الذي ترجم الحضارات الأخرى واستخرج منها حضارة مستقلة؟

بفاعلية الرعيل الأول دخلت الأمة الإسلامية التاريخ من أوسع أبوابه وكوّنت حضارة متميزة في كافة المستويات، وغرست بتقديرها للعمل وحرصها على النفع وتوجيهها للطاقات نحو عمل الخير منابت المعرفة وتقديس العمل، حتى أصبح مؤشر تفاخرهم في البذل والعطاء والعلم والتعلم. روى قتادة عن أنس قال: افتخرت الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة: حنظلة، ومنا الذي حمته الدَّبْر: عاصم بن ثابت ومنا الذي اهتز لموته عرش الرحمن: سعد بن معاذ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت. فقال الخزرجيون: منا أربعة نفر قرأُوا القرآن، على عهد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، لم يقرأه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل. يعني بقوله: لم يقرأه كله أحد من الأوس، وأما من غيرهم فقد قرأه على بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعبد اللّه بن مسعود، في قول، وسالم مولى أبي حذيفة وعبد اللّه بن عمرو بن العاص وغيرهم؛ ذكر هذا أبو عمر[١٤٨].

نظرة سريعة إلى الرعيل الأول كافية لحمل النفس إلى التطلع الدائم لاقتفاء أثرهم والسير على طريقهم، (فقد تحملوا الأذى البدني المروع الذي صب عليهم من أكابر المجرمين كما ساهم القرآن الكريم، تحملوا خسارة التجارات والأموال، وصبروا على مشقة الجوع والعطش، حتى حوصروا في الشعب، وصبروا على الغربة، حين غادروا الديار، وهجروا الأوطان، وأرخصوا الأهل

[١٤٧] "بدائع الفوائد"، (٧٤٧/٣).
[١٤٨] "أسد الغابة في معرفة الصحابة".

والمال، فتركوها وراءهم ظهرياً، ورحلوا إلى بلاد بعيدة، وأقوام غرباء عنهم في اللغة والبلاد والعادات، وهذه تضحية جسيمة بالغة الجسامة، إذا ما قيست بحياة العربي الذي كان يحب وطنه وقومه يعيش حراً، ويلوذ بقبيلته واهله، ويصعب عليه أن يفارقهم إلا ريثما يعود لهم بعد رحلة قصيرة)[١٤٩].(ولقد كان لتحملهم وصبرهم وكفاحهم أعظم الآثار في انتشار الإسلام، الدعوة بعد أن علمهم إيمانهم القوي، وعقيدتهم الثابتة. اقتضى الله بحكمته أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لإيمانه وكرامته، ومن لا يصلح ومن يقدر على تحمل أعباء الدعوة ومن لا يقدر، وليمحص النفوس التي تصلح لها، ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو غشه إلا بالامتحان)[١٥٠]. (وكان لعلمهم أعظم الآثار في تهذيب النفس، وتقوى الله، واتباع الصراط المستقيم، والبعد عن الشر وأهله، وتعميم الخير وإقامة الحق والعدل، ونشر دعوة الإسلام، عندما كانوا يختلفون إلى مدرسة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فيصيبون منها علماً وهدى وفضائل وسجايا وآداباً وأحكاماً، ما اتسعت لذلك أوقاتهم، وساعدت عليه ظروفهم)[١٥١]. (ولقد كان لتضحياتهم أعظم الآثار في نجاح الدعوة؛ لأن الدعوات لا تقوم إلا بالبذل، ولا تثبت في وجه الأعاصير إلا بالتضحيات الجسام، وحمايتها وحياطتها بكل غال ونفيس من الأنفس والأموال والأهل)[١٥٢].

والآن إلى النماذج (وهي أشتات بين أشياخ وشباب وصبية ونساء):

- أبو بكر الصديق–رضي الله عنه–. قال ابن القيم رحمه الله عن شجاعة أبي بكر الصديق–رضي الله عنه–: (وكان الصديق رضي الله عنه أشجع الأمة بعد رسول الله... برز على الصحابة كلهم بثبات قلبه، في كل موطن من المواطن التي تزلزل الجبال، وهو في ذلك ثابت القلب، ربيط الجأش، يلوذ به شجعان الصحابة وأبطالهم، فيثبتهم ويشجعهم، ولو لم يكن له إلا ثبات قلبه يوم الغار، وليلته، وثبات قلبه يوم بدر، وهو يقول للنَّبي يا رسول الله كفاك بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك، وثبات قلبه يوم أحد، وقد صرخ الشيطان في النَّاس بأن محمدًا قد قتل، ولم يبق

[١٤٩] "أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي"؛ لعبد الله آل موسى (ص:٣٣٥).
[١٥٠] " العهد النبوي"؛ لعبد الله آل موسى (ص:٣٣٨).
[١٥١] "أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي"؛ لعبد الله آل موسى (ص:٣٤٠).
[١٥٢] "أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي"؛ لعبد الله آل موسى (ص:٣٥٧).

أحد مع رسول الله إلا دون عشرين في أحد، وهو مع ذلك ثابت القلب ساكن الجأش، وثبات قلبه يوم الخندق وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وثبات قلبه يوم الحديبية، وقد قلق فارس الإسلام عمر بن الخطاب، حتى إنَّ الصديق ليثبته ويسكنه ويطمئنه، وثبات قلبه يوم حنين حيث فر النَّاس وهو لم يفر، وثبات قلبه حين النازلة التي اهتزت لها الدنيا أجمع، وكادت تزول لها الجبال، وعقرت لها أقدام الأبطال، وماجت لها قلوب أهل الإسلام،كموج البحر عند هبوب قواصف الرياح، وصاح لها الشيطان في أقطار الأرض أبلغ الصياح، وخرج النَّاس بها من دين الله أفواجًا، وأثار عدو الله بها أقطار الأرض عجاجًا، وانقطع لها الوحي من السماء، وكاد لولا دفاع الله لطمس نجوم الاهتداء، وأنكرت الصحابة بها قلوبهم، وكيف لا وقد فقدوا رسولهم من بين أظهرهم، وحبيبهم، وطاشت الأحلام، وغشي الآفاق ما غشيها من الظلام، واشْرَأَبَّ النفاق، ومد أهله الأعناق، ورفع الباطل رأسًا كان تحت قدم الرسول موضوعًا، وسمع المسلمون من أعداء الله ما لم يكن في حياته بينهم مسموعًا، وطمع عدو الله أن يعيد النَّاس إلى عبادة الأصنام، وأن يصرف وجوههم عن البيت الحرام، وأن يصد قلوبهم عن الإيمان والقرآن، ويدعوهم إلى ما كانوا عليه من التهود، والتمجس، والشرك، وعبادة الصلبان، فشمَّر الصديق رضي الله عنه من جده عن ساق غير خوار، وانتضى سيف عزمه الذي هو ثاني ذي الفقار، وامتطى من ظهور عزائمه جوادًا لم يكن يكبو يوم السباق، وتقدم جنود الإسلام فكان أفرسهم إنَّما همه اللحاق، وقال والله لأجاهدن أعداء الإسلام جهدي، ولأصدقنهم الحرب حتى تنفرد سالفتي، أو أفرد وحدي، ولأدخلنهم في الباب الذي خرجوا منه، وَلَأَرُدَّنَّهُمْ إلى الحق الذي رغبوا عنه، فثبَّت الله بذلك القلب الذي لو وزن بقلوب الأمة لرجحها جيوش الإسلام، وأذلَّ بها المنافقين، والمرتدين، وأهل الكتاب، وعبدة الأصنام، حتى استقامت قناة الدين من بعد اعوجاجها، وجرت الملة الحنيفية على سننها ومنهاجها، وتولَّى حزب الشيطان وهم الخاسرون، وأذَّن مؤذن الإيمان على رؤوس الخلائق "فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُون" المائدة: ٥٦.

هذا وما ضعفت جيوش عزماته، ولا استكانت ولا وهنت، بل لم تزل الجيوش بها

مؤيَّدة ومنصورة، وما فرحت عزائم أعدائه بالظفر في موطن من المواطن، بل لم تزل مغلوبة مكسورة، تلك لعمر الله الشَّجَاعَة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمَّة التي تصاغرت عندها عليات الهمم، ويحق لصديق الأمة أن يضرب من هذا المغنم بأوفر نصيب، وكيف لا وقد فاز من ميراث النبوة بكمال التعصب)[١٥٣]. وعن محمد بن عقيل بن أبي طالب، قال: (خطبنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: أيها النَّاس، أخبروني بأشجع النَّاس، قالوا: لو قلنا أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع النَّاس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر الصديق، إنا لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشًا فقلنا: من يكون مع النَّبي صلى الله عليه وسلم لا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، وهذا أشجع النَّاس، قال علي: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته قريش فهذا يجؤه، وهذا يتلتله، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، قال: فوالله ما دنا منه إليه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم رفع علي بردة كانت عليه فبكى حتى أخضل لحيته، ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ قال: فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني ؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه)[١٥٤].

- عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–. عن محمد بن إسحاق قال: (فلما قدم عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو ابن العاص، على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وردهم النجاشي بما يكرهون، أسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلًا ذا شكيمة، لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة بن عبد المطلب، حتى غزا قريشًا، فكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل

---

[١٥٣] "الفروسية"، (ص:٥٠٢)

[١٥٤] رواه البزار وأبو نعيم في فضائل الخلفاء.

قريشًا حتى صلَّى عند الكعبة وصلَّينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة)[١٥٥].

- القراء الأربعة. قال عليه الصلاة والسلام:"استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل"[١٥٦]. دليل العناية من قبلهم بالقرآن وحذقهم في ذلك.
- عمرو بن سلمة–رضي الله عنه–.كان عمرو بن سلمة –وهو من صغار الصحابة– حريصاً على تلقي العلم فكان يتلقى الركبان ويستفتيهم ويسألهم ويستقرئهم حتى فاق قومه كلهم وتأهَّل لإمامتهم[١٥٧].
- زيد بن ثابت–رضي الله عنه–. قال له عليه الصلاة والسلام: "يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي"، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ"[١٥٨].
- نقرأ كثيرا في السيرة (استصغر فلان في غزوة كذا وكذا): ومن هؤلاء: البراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورافع والخدري وابن عمر–رضي الله عنهم–، وهذا دليل على استعدادهم وحبهم للبذل والعطاء المتأصل في شغاف قلوبهم.
- عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أنسا غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمته في السفر والحضر ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ولا لشيء لم أصنعه: لم لم تصنع هذا هكذا[١٥٩]. وفيها هذا دليل على حب الصحابة لتفعيل الصغار في خدمة الدين والرسالة، وإبقائهم على ذلك مهما كانت الحاجة لهم في الأسرة وأعمال البيت. ويؤكد هذا ما قاله أبو هريرة–

---

[١٥٥] رواه ابن هشام في السيرة، وأحمد في فضائل الصحابة.
[١٥٦] متفق عليه.
[١٥٧] رواه أحمد.
[١٥٨] رواه أحمد، ورواه البخاري تعليقاً.
[١٥٩] رواه البخاري (٢٧٦٨)، ورواه مسلم (٢٣٠٩).

رضي الله عنه- عن هند وأسماء ابنتي حارثة: (ما كنت أرى هندا وأسماء ابنتي حارثة إلا خادمين لرسول الله من طول لزومهما بابه وخدمتهما إياه)[١٦٠].

- عبد الله بن عباس –رضي الله عنه-. كان حريصاً على السنة، فقد كان ينام على باب أحد الصحابة، فيحكي عن نفسه فيقول كما عند الدارمي بسند صحيح: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فإنهم اليوم كثر. أي: في هذا الوقت قد مات الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثر، ولو لم نسألهم الآن فإنه سيأتي يوم يموتون هم أيضاً، فلا بد أن نسألهم ونتعلم منهم، وذلك حتى نعرف العلم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له صاحبه الأنصاري مستغرباً: وا عجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك. وفيهم كبار الصحابة، كأمثال أبي بكر و عمر و عثمان و علي و طلحة و الزبير وغيرهم؟ وكان عُمْرُ عبد الله بن عباس عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة، وكأن الأنصاري استقله لصغر سنه. يقول عبد الله بن عباس: فترك ذلك. أي: أن صاحبه الأنصاري لم يذهب فيسأل الصحابة، قال ابن عباس :وأقبلت أنا على المسألة، وإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه في قيلولته، فأتوسد ردائي على بابه، فتسف الريح التراب على وجهي. فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك. فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث. وبعد مرور فترة من الزمن على طلب العلم يقول ابن عباس رضي الله عنهما: فبقي الرجل – أي: صاحبه الأنصاري- حتى رآني وقد اجتمع الناس عليّ يسألونني العلم. أي: صار ابن عباس رضي الله عنهما من علماء المسلمين، ورحل الناس إليه لطلب العلم، بينما صاحبه الأنصاري ندم على ذلك، ولذا جاء عنه أنه قال: كان هذا الفتى -أي عبد الله بن عباس- أعقل مني. لكن الندم عند ذلك لا ينفع، والوقت الذي يذهب منك لا يرجع مرة أخرى، والذكي هو الذي لا يضيع وقته، وكل شيء يمكن أن يعوض إلا الأيام والليالي. وعن ابن عباس –رضي الله عنه- قال: "كنتُ في بيتِ

---

[١٦٠] رواه الحاكم، وانظر الإصابة (٢١٧/١).

ميمونةَ بنت الحارثِ فوضَعتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم طَهورَه ، فقال: من وضع هذا ؟ فقالت: عبدُ اللهِ. فقال: اللَّهمَّ فقِّهْه في الدِّينِ وعلِّمْه التَّأويلَ"[١٦١]. وفي هذا حرص الصحابي على خدمة الرسول وعدم إدخار جهد في ولو بتهيئة الماء للوضوء، وكذلك حب النبي لهذا الأمر ودليل ذلك سؤاله عمن وضعه ثم الدعاء العظيم الذي جازى به ابن عباس نتيجة عمله.

- أبو أيوب–رضي الله عنه–. (شيخ سيستشهد على أعتاب القسطنطينية).
- عبد الله الأنصاري –رضي الله عنه–. يروي أبي نضرة، عن جابر قال أبي: أرجو أن أكون في أول من يصاب غدًا، فأوصيك ببناتي خيرًا، فأصيب، فدفنته مع آخر، فلم تدعني نفسي حتى استخرجته ودفنته وحده بعد ستة أشهر، فإذا الأرض لم تأكل منه شيئًا، إلا بعض شحمة أذنه. عن جابر بن عبد الله قال: لما قُتل أبي يوم أُحُد جعلتُ أكشف الثوب عن وجهه وأبكي وجعل أصحاب رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلم، ينهونني والنبي، صَلَّى الله عليه وسلم، لا ينهاني. قال وجعلتْ عمّتي فاطمة بنت عمرو تبكي عليه فقال النبيّ، صَلَّى الله عليه وسلم: "تَبكِّيه أو لا تُبَكّيه، ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتى رفعتموه". رواه البخاري. وعن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أَبي صَعْصَعَة: أَنه بلغه أَن عمرو ابن الجموح وعبد اللّه بن عَمْرو بن حرام الأَنصاريين ثم السَّلَمِيَّينِ كانا قد حَفَرَ السَّيْلُ عن قبرهما وكان قبرُهما مما يَلِي السَّيْل، وكانا في قَبْرٍ، واحد، وكانا ممن اسْتُشْهِد يوم أُحد، فحفروا عنهما ليُغَيِّرَا من مكانِهما، فوُجدا لم يَتَغَيَّرَ كَأَنَّمَا مَاتَا بالأَمْس وَكَانَ أَحدُهما قد وضع يده على جُرْحه، فدُفن وهو كذلك، فأُمِيطت يدُه عن جُرْحه، ثم أُرْسِلت فرَجَعَتْ كَمَا كانت. وكان بين يوم أُحُد وبين يومَ حُفِر عنهما سِت وأَربعون سنة . "وكان الذي قَتَلَ عبدَ اللّهِ أُسَامَةُ الأَعْور بن عُبَيْد وقيل: بل قتله سُفْيَان بن عَبْدِ شَمْس أَبو أَبِي الأَعْوَر السَّلَمِيّ. (كان عبد اللّه عَقَبِيًّا بَدْرِيًّا نَقِيبًا، كان نقيبَ بني سَلِمة هو والبَرَاءَ بن مَعْرُور)١٦٢.
- معاذ ومعوذ أبناء عفراء –رضي الله عنهم–. (روى البخاري و مسلم في صحيحيهما من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: بينما أنا في الصف يوم بدر إذ

---

[١٦١] رواه أحمد (٣٣٥/١) ح(٣١٠١).
[١٦٢] "أسد الغابة في معرفة الصحابة".

رأيت غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما –ما بين الاثني عشر سنة والأربعة عشر سنة– قال: فجاءني أحدهما فغمزني، وقال: يا عم! هل تعرف أبا جهل ؟ فقلت: يا ابن أخي! وما تريد منه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده لئن التقى سوادي بسواده –أي: جسمي بجسمه أو شخصي بشخصه– ما أتركه حتى يموت الأعجل منا، قال: لئن التقى سوادي بسواده لا أتركه حتى يموت الأعجل منا، قال: وجاءني الغلام الآخر فغمزني وقال لي مثلما قال الأول، وكل منهما حريص على أن يقتل أبا جهل قبل أخيه؛ قال: فلم أنشب –أي: لم يمر إلا وقت قصير– حتى رأيت أبا جهل يجول في الناس –أي: يضطرب، قلق، يذهب ويأتي ليس له مكان ثابت– قال: فلما رأيته، قلت لهما: هذا صاحبكما، قال: فابتدراه فضربه كل بسيفه فقتلاه، ثم اختصما على سلبه –السلب: ما يكون عند الرجل المقتول من المغانم، والمجاهد إذا قتل الكافر فله سلبه؛ متاع ويكون ملكاً للمجاهد الذي قتله، فاختصم هذان الغلامان فذهبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كل يقول: أنا –لأن قتل عدو الله ورسوله شرف– فقال عليه الصلاة والسلام: "هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا. فقال: أرياني، فلما نظر إلى سيفهما، قال: كلاكما قتله".

- عمير بن الوقاص–رضي الله عنه–. عن عامر بن سعد عن أبيه قال: (رأيت أخي عمير بن أبي وقاص – قبل أن يعرضنا رسول الله للخروج إلى بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ فقال: إني أخاف أن يراني رسول الله فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله فاستصغره فقال: ارجع، فبكى عمير، فأجازه رسول الله، قال سعد: فكنت أعقد له حمائل سيفه من صغره، فقتل في بدر وهو ابن ستة عشر سنة، وقتله عمرو بن عبد ود)[١٦٣].
- بقي بن مخلد الأندلسي–رحمه الله–. (قد قسم أيامه على أعمال البر: فكان إذا صلى الصبح قرأ حزبه من القرآن في المصحف، سدس القرآن، وكان أيضا يختم القرآن في الصلاة في كل يوم وليلة، ويخرج كل ليلة في الثلث الأخير إلى مسجده ، فيختم قرب

[١٦٣] "صفوة الصفوة"، لابن الجوزي.

انصداع الفجر. وكان يصلي بعد حزبه من المصحف صلاة طويلة جدا، ثم ينقلب إلى داره –وقد اجتمع في مسجده الطلبة– فيجدد الوضوء، ويخرج إليهم، فإذا انقضت الدول، صار إلى صومعة المسجد، فيصلي إلى الظهر، ثم يكون هو المبتدئ بالأذان، ثم يهبط ثم يسمع إلى العصر، ويصلي ويسمع، وربما خرج في بقية النهار، فيقعد بين القبور يبكي ويعتبر. فإذا غربت الشمس أتى مسجده، ثم يصلي، ويرجع إلى بيته فيفطر، وكان يسرد الصوم إلا يوم الجمعة، ويخرج إلى المسجد، فيخرج إليه جيرانه، فيتكلم معهم في دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشاء، ويدخل بيته، فيحدث أهله، ثم ينام نومة قد أخذتها نفسه، ثم يقوم. هذا دأبه إلى أن توفي. وكان جلدا، قويا على المشي، قد مشى مع ضعيف في مظلمة إلى إشبيلية، ومشى مع آخر إلى إلبيرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جيان[١٦٤].

- شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–. (قال ابن القيم: وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدّ سقطت قوتي)[١٦٥]. (وقال البزار: أما عن تعبده فإنه قل أن سُمع بمثله؛ لأنه قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يراد له لا من أهل، ولا من مال)[١٦٦]. (قال ابن القيم: ما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائي. وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه)[١٦٧]. (وقال البزار: كان من أشجع الناس، وأقواهم قلباً. ما رأيت أحد أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة

---

[١٦٤] "سير أعلام النبلاء"، (٢٩٦/١٣).
[١٦٥] "الوابل الصيب من الكلم الطيب"، (ص:٦٣).
[١٦٦] "الأعلام العلية"، (ص:٣٨).
[١٦٧] "مدارج السالكين" (٣٢٨/٢-٣٢٩).

لائم. واخبر غير واحد أن الشيخ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بين واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً، أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة. وكان إذا ركب الخيل يتحنك، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فهم خوض رجل لا يخاف الموت. وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً عظيمة يعجز الواصف عن وصفها. قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره)[١٦٨].

- نور الدين محمود–رحمه الله–. (هو الملك العادل تقي الملوك، ليث الإسلام، كان مولده ٥١١هـ. كان رحمه الله حامل رايتي العدل والجهاد، قل أن ترى لعيون مثله. أظهر السنة بحلب، وقمع الرافضة، وفتح مصر، وقهر دولتها الرافضية، وهرب منه الفرنج، وباد وزيره صلاح الدين العبيدين واستأصلهم، وأقام الدولة العباسية)[١٦٩]. قال ابن خلكان: (كان زاهداً عابداً، متمسكاً بالشرع مجاهد كثير البر والأوقاف، له من المناقب ما يستغرق الوصف). وقال الخطيب البغدادي: (كان نور الدين لم ينشف له لِبَدٌ من الجهاد، وكان يأكل من عمل يده، يلبس الصوف ويلازم السجادة والمصحف)[١٧٠]. (وقال له القطب النيسابوري الفقيه: بالله عليك عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام؛ فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف. فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قبلي حفظ الله البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو)[١٧١]. ورثى العماد الأصفهاني في ديوانه نور الدين قائلاً:

الدَّين في ظُلم لغيبة نوره *** والدهُر في غُمم لفقد أميره

فلينْدُبِ الإسلامُ حامَي أهله *** والشام حافظ ملكه وثغوره

ما أعظم المِقدار في أخطاره *** إذ كان هذا الخطب في مقدوره

---

[١٦٨] "الأعلام العلية"، ص: (٦٩-٧٠).
[١٦٩] "سير أعلم النبلاء"، (٥٣١/٢-٥٣٣).
[١٧٠] "سير أعلام النبلاء"، (٥٣٤/٢٠).
[١٧١] "الكامل"، (١٢٥/٩).

ما أكثَر المتأسَّفين لفقد من *** قرَّت نواظرُهُم بفقد نظيره

ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه *** أو ما كفاه الموت في تذكيره

من للمساجد والمدارس بانيا *** لله طوعا عن خُلُوصِ ضَمِيره

من ينصر الإسلام في غزواته *** فلقد أصيب بُركنه وظهيره)

وللنساء شقائق الرجال صور ومشاهد تفتت معها أصنام الذل والخمول والرجعية الجاهلية:

- خديجة–رضي الله عنها– (رفيقة النبوة ومؤازرة الدعوة). هي أوّل زوجات النبي–صلى الله عليه وسلم–، وأمّ أولاده، وخيرة نسائه، وأول من آمن به وصدقه. وكانت خديجة رضي الله عنها تحب النبي – صلى الله عليه وسلم – حبّاً شديداً، وتعمل على نيل رضاه والتقرّب منه، حتى إنها أهدته غلامها زيد بن حارثة لما رأت من ميله إليه. وعند البعثة كان لها دورٌ مهم في تثبيت النبي – صلى الله عليه وسلم – والوقوف معه، بما آتاها الله من رجحان عقل وقوّة الشخصيّة، فقد أُصيب عليه الصلاة والسلام بالرعب حين رأى جبريل أوّل مرّة، فلما دخل على خديجة قال: "زمّلوني زمّلوني"، ولما ذهب عنه الفزع قال: "لقد خشيت على نفسي"، فطمأنته قائلةً: (كلا والله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق). رواه البخاري، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ليبشّره باصطفاء الله له خاتماً للأنبياء عليهم السلام. ولما علمت –رضي الله عنها– بذلك لم تتردّد لحظةً في قبول دعوته، لتكون أول من آمن برسول الله وصدّقه، ثم قامت معه تسانده في دعوته، وتؤانسه في وحشته، وتذلّل له المصاعب، فكان الجزاء من جنس العمل، بشارة الله لها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.رواه البخاري و مسلم. وقد حفظ النبي –صلى الله عليه وسلم– لها ذلك الفضل، فلم يتزوج عليها في حياتها إلى أن قضت نحبها، فحزن لفقدها حزناً شديداً، ولم يزل يذكرها ويُبالغ في تعظيمها والثناء عليها، ويعترف بحبّها وفضلها على سائر أمهات المؤمنين فيقول: "إني قد رزقت حبّها"رواه مسلم، ويقول: "آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء". رواه أحمد، حتى غارت منها عائشة رضي الله عنها غيرة

شديدةً. وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي اللهُ عنها قالت: "مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم إِيَّاهَا"

قال الذهبي: وهذا من أعجب شيء أن تغار رضي اللهُ عنها من امرأة عجوز توفيت قبل تزوج النبي صلى اللهُ عليه وسلم بعائشة بمُديدة، ثم يحميها الله من الغيرة من عدة نسوة يشاركنها في النبي صلى اللهُ عليه وسلم، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبي صلى اللهُ عليه وسلم، لئلا يتكدر عيشهما، ولعله إنما خفف أمر الغيرة عليها حب النبي صلى اللهُ عليه وسلم لها وميله إليها، فرضي الله عنها وأرضاها[١٧٢].

ومن وفائه —صلى الله عليه وسلم— لها أنّه كان يصل صديقاتها بعد وفاتها ويحسن إليهنّ، وعندما جاءت جثامة المزنية لتزور النبي —صلى الله عليه وسلم- أحسن استقبالها، وبالغ في الترحيب بها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟) ، فقال :"إنها كانت تأتينا زمن خديجة؛ وإن حسن العهد من الإيمان". رواه الحاكم، وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا ذبح الشاة يقول: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة" رواه مسلم. وكان النبي —صلى الله عليه وسلم— إذا سمع

صوت هالة أخت خديجة تذكّر صوت زوجته فيرتاح لذلك، كما ثبت في الصحيحن. وقد بيَّن النبيُّ – صلى الله عليه وسلم- فضلها حين قال: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران رضي الله عنهن أجمعين" رواه أحمد، ،إذا نظرت لهن وجدتهن رعوا الأنبياء وآثروا راحتهم فخديجة زوج النبي وفاطمة ابنته كانوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عزا وأنسا، وآسيا رعت موسى — عليه السلام-، ومريم رعت ابنها عيسى —عليه السلام-. وقد بيّن رسول الله أنها (خديجة رضي الله عنها) خير نساء الأرض في عصرها في قوله: "خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد". متفق عليه. قال ابن إسحاق: وآمنت خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت

[١٧٢] "سير أعلام النبلاء"، (١٦٥/٢).

بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن رسوله؛ لا يسمع شيئا يكرهه؛ من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس رضي الله عنها وأرضاها[١٧٣]. وقد كانت مع رسول الله مؤازرة ومناصرة حتى وهي عجوز في الستين شاركته في حصار الشعب تخدمه وتقوم في حاجته، وقد توفيت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقبل معراج النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ولها من العمر خمس وستون سنة، ودفنت بالحجُون، لترحل من الدنيا بعدما تركت سيرةً عطرة، وحياة حافلةً، لا يُنسيها مرور الأيام والشهور، والأعوام والدهور، ظلت مع النبي وهي تحت التراب فرضي الله عنها وأرضاها.

- أم الفضل (أم عبد الله بن عباس–رضي الله عنهم تضرب أبا لهب لما اعتدى على أبي رافع رضي الله عنه). (وأبو لهب رماه الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن شجته أم الفضل. وذلك أنه لما قدم الحيسمان مكة يخبر خبر بدر؛ قال له أبو لهب: أخبرني خبر الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، ومع ذلك ما لمست الناس. لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا والله ما تبقي منا؛ يقول: ما تبقي شيئا. قال أبو رافع: وكنت غلاما للعباس أنحت الأقداح في صفة زمزم، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، فرفعت طنب الحجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضربة منكرة، وثاورته، وكنت رجلا ضعيفا، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبرك على صدري يضربني. وتقدمت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فتأخذه وتقول: استضعفتَه أن غاب عنه سيده! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلقه شجة منكرة. فقام يجر رجليه ذليلا، ورماه الله بالعدسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام يدفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غسلوه بالماء، قذفا من بعيد، مخافة عدوى العدسة. وكانت قريش تتقيها كما يتقي الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رضموا عليه الحجارة)[١٧٤].
- أم سليم بنت ملحان (أغلى الناس مهراً–أم أنس بن مالك رضي الله عنهما). الرميصاء بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية الخزرجية، رضي الله عنها. كانت أم سليم مؤمنة داعية واعية، ومجاهدة صادقة وزوجة مخلصة ومربية فذة رؤوم، ما زالت ترتقي سلم

---

[١٧٣] "البداية والنهاية"، (٥٩/٤).
[١٧٤] "تفسير القرطبي"، سورة المسد.

المجد حتى بلغت منتهاه، وتعلو معالي الفخار حتى بشرها النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة.

تعالوا بنا نبدأ معها الطريق من أولها حين سمعت مبكرا بالإسلام قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بسنوات، فأذعنت لرسالة الحق وقبلت نور الله، فأشرقت نفسها الذكية وآمنت برب البرية وسيد البشرية.

كان زوجها مالك بن النضر غائبا لما أسلمت فلما رجع ورأى حالها قال: أصبوت؟ قالت: لا ولكني أسلمت. وكانت تلاعب ولدها أنسا الصغير الرضيع وتقول: أسلم يا أنيس..قل لا إله إلا الله..فقال لها زوجها: لا تفسدي علي ولدي. فقالت: أنا لا أفسده. حاول أن يردها عن إسلامها، فأبت عليه.فلما يئس منها ضاق ذرعا فترك البيت إلى الشام فقتل هناك.

قصد الخطاب بيت أم سليم، فقد كانت عاقلة لبيبة مرغوبا فيها، وكان من بين الخطاب أبو طلحة (زيد بن خالد الأنصاري)، رجل من رجالات الأنصار المعروفين، ذو نجدة ومروءة وكرم وشجاعة وقد اجتمع فيه من الصفات ما يجعله بعيدا عن أن يرد.. فلما تقدم لخطبتها قدم لها مهرا كبيرا لكنها رفضت وقالت: أنت مشرك وأنا مسلمة ولا ينبغي أن أتزوج مشركا. وأخبرته أنه لا يصلح لها أن تتزوج به .

ولكنها أرادت أن تزيل غشاوة الشرك من قلبه فقالت: يا أبا طلحة الست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض شجرة نجرها حبشي بني فلان؟ قال نعم. قالت أما تستحي أن تعبد إلها أخذت نصفه تعبده وأخذ بنو فلان نصفه فأججوا به نارهم؟ فكأنها حركت فيه شيئا كان غائبا، وعقلا كان قد رضي بما كان عليه الآباء والأجداد. حاول مرة أخرى أن يغريها بالمال فقال إنما كان مالك كافرا، وإنما يمنعك عني الصفراء والبيضاء (يعني الذهب والفضة) فقالت: أما إني فيك لراغبة، وما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فذاك مهري، لا أسألك غيره، فأسلم وتزوجها أبو طلحة. فكان أعظم مهر في الإسلام .

كانت أم سليم مربية فذة سخرت كل قدراتها لتحسن تربية أبنائها وتخرج رجالا يصلحون لعبادة الرحمن ولخدمة الإسلام فكان لها ما أرادت.

فابنها الأول هو الصحابي الجليل أنس بن مالك. ومن منا لا يعرف أنسا؟!! إنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم..أخذته حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وذهبت به إليه وكان ابن عشر سنين. فقالت: يارسول الله هذا أنس خادم يخدمك. فخدمه عشر سنين إلى أن

مات عليه الصلاة والسلام فنال شرف القرب ورشف من معين الأدب وتشرب بمكارم الأخلاق. ونال دعوة من المختار حين طلبت أمه من الكريم عليه السلام أن يدعو لابنها فما ترك شيئا من خير الآخرة والأولى إلا دعا له به. فرضي الله عنه وعن أمه.

وأما ابنها الثاني: فهو البراء بن مالك. ما زالت تربيه على الإيمان والرجولة حتى بلغ الغاية فيهما. فكان مؤمنا تقيا خفيا حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: "كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك". رواه الترمذي وصححه الألباني.

وفي الرجولة والجهاد كان أسدا هصورا ومقاتلا مغوارا متقحما للمهالك لا يخشى في الله لومة لائم حتى كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الجيش: "لا تستعملوا البراء على جيش؛ فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم". قتل وحده مائة فارس مبارزة غير الذين قتلهم في المعارك.

وإذا أردت أن تعرف قدره وشجاعته وإقدامه فاقرأ قصة حديقة الموت في حروب الردة عندما قاتلوا مسيلمة الكذاب، واقرأ بعد ذلك فتح تستر العظيم وكان من أيام فتوح فارس. وفيها طلب منه المسلمون أن يدعو الله لهم بالفتح فدعى الله أن يفتح عليهم وأن يقبله في الشهداء فاستجاب الله دعوته ففتح للمسلمين ومات البراء شهيدا حميدا.

وأما ابنها الثالث: فلا أظن أحدا من المسلمين لا يعرف حديث"يا أبا عمير ما صنع النغير"، فقد كان أبو عمير ابنا لأم سليم وأخا لأنس والبراء.

وأما الابن الرابع: فكانت له قصة عجيبة حيث بدأت قصة عبد الله الابن الرابع لأم سليم وأبي طلحة عندما مرض طفل صغير لأبي طلحة فخرج للصلاة أو لغيرها ومات الصغير وأبوه خارج البيت. لنسمع إلى أنس ابنها يروي القصة يقول: ثَقُلَ ابْنٌ لأُمِّ سُلَيْمٍ، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى المسْجِدِ، فَتُوُفِّيَ الغُلاَمُ، فَهَيَّأَتْ أُمُّ سُلَّيْمٍ أَمْرَهُ، وَقَالَتْ: لاَ تُخْبِرُوْهُ. فَرَجَعَ، وَقَدْ سَيَّرَتْ لَهُ عَشَاءهُ، فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْ أَهْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ! أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ أَبِي فُلاَنٍ اسْتَعَارُوا عَارِيَّةً، فَمَنَعُوْهَا، وَطُلِبَتْ مِنْهُم، فَشَقَّ عَلَيْهِم؟ فَقَالَ: مَا أَنْصَفُوا. قَالَتْ: فَإِنَّ ابْنَكَ كَانَ عَارِيَّةً مِنَ اللهِ، فَقَبَضَهُ. فَاسْتَرْجَعَ، وَحَمِدَ اللهَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلَمَّا رَآهُ، قَالَ: (بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا). فَحَمَلَتْ بِعَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَوَلَدَتْ لَيْلاً، فَأَرْسَلَتْ بِهِ مَعِي، وَأَخَذْتُ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ، فَانْتَهَيْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! وَلَدَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ اللَّيْلَةَ. فَمَضَغَ بَعْضَ التَّمَرَاتِ بِرِيْقِهِ، فَأَوْجَرَهُ إِيَّاهُ، فَتَلَمَّظَ الصَّبِيُّ، فَقَالَ: (حِبُّ الأَنْصَارِ التَّمْرُ). فَقُلْتُ: سَمِّهِ يَا رَسُوْلَ اللهِ. قَالَ: (هُوَ عَبْدُ اللهِ). قَالَ عَبَايَةُ أحد رواه الحديث: فَلَقَدْ رَأَيْتُ لِذَلِكَ الغُلاَمِ سَبْعَ بَنِيْنَ، كُلُّهُمْ قَدْ خَتَمَ القُرْآنَ. هذا هو عبد الله الابن الرابع لأم سليم فهل رأيتم تربية أعظم من هذه؟! وهل رأيتم زوجة تصنع مثل أم سليم؟!

لم يكف أم سليم أن تؤدي دورها في نشر دعوة الإسلام، بل حرصت على أن تشارك في الجهاد. يقول أنس- رضي الله عنه-: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى). وفي صحيح مسلم وطبقات ابن سعد بسند صحيح: "أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين، فقال أبو طلحة: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر. فقالت: يا رسول الله إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه".

تلك هي الرميصاء بنت ملحان أم سليم، عاشت حياتها تناصر الإسلام، وتشارك المسلمين في أعمالهم، وما زالت ترتقي ذرا المجد حتى نالت أعلاها حين بشرها النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة بقوله: "دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت من هذا؟ قالوا: هذه الرميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك".رواه مسلم.

- أم عماره نسيبة بنت كعب —رضي الله عنها-. سمعتْ أمُّ عمارةَ بالدِّين الجديد الذي ذاع صِيتُه على استحياء في جنبات مكَّة، فراحتْ ترقب أخبارَه جادَّةً باحثةً عن الحقِّ المبين، حتى أشرق نور اليقين في قلبها، وملأ عليها جنباتِها، فلم تلبثْ إلاَّ يسيرًا حتى أسلمتْ، وكانتْ بذلك من السابقين الأوَّلين إلى الإسلام، وكان ذلك حين بايعتْ رسولَ الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في بيعة العَقبة الثانية[١٧٥]. ومضتْ أمُّ عمارة قُدمًا تهبُ طاقاتِها لخدمة هذا الدِّين منذُ لحظاتها الأولى في الإسلام، فكان شغلُها الشاغل وهمُّها الكبير أن تثْبت للمرأة المسلمة دَورَها الواضح في خِدمة الدَّعوة، كما أظهرتْ طاقاتٍ عظيمةً سخَّرتها في بناء جيلٍ مسلم بالتربية القويمة والتنشئة الطيِّبة، فغذتْ أولادَها بمعاني الجِهاد، وطلب الشهادة في سبيل نصرة دِين الله، فأخذوا ينهلون من إيمان والدتهم العظيم، وضربوا أروعَ الأمثلة في البطولة والجِهاد. حضرتْ نسيبة -رضي الله عنها- معظمَ المشاهد مع رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكانت تهبُ نفسَها ورُوحَها، وكلَّ

[١٧٥] "الطبقات الكبرى"، (٤١٢/٨).

طاقاتها في سبيل بقاء الإسلام عزيزًا شامخًا، فقد شاركتْ في مُجمل أحداث الدَّعوة الأولى التي خطَّتِ المعالِمَ الرئيسة للدِّين الجديد، فقد شهدتْ بالإضافة إلى بَيعةِ العقبة الثانية كُلاًّ من بيعة الرِّضوان، وصلح الحُديبية، وعمرة القضاء[١٧٦]. لم تكن هذه المشاعر والعواطف النبيلة التي ملأتْ على أمِّ عمارة فؤادَها، نتيجة نزعة عابرة تزول على مرِّ الأيَّام؛ بل كان مصدرُها إيمانًا عميقًا، ويقينًا بالله ورسوله، وهو إيمانٌ ثابت لا يزول، أو يتزحزح أمامَ أيِّ قوَّة من قوى الظُّلم، واستطاعتْ بذلك أن تُسجِّل على أوراق الدَّهر من الأعمال والفضائل التي قلَّ نظيرها. لم تَرتَوِ أمُّ عمارةَ بما كان منها حتى الآن؛ بل أخذتْ تُقدِّم -رضي الله عنها- المثلَ الأعلى في التضحية والفِداء، فكثُرتْ صورُ عطائها المشرق، وبان ثباتُها في الملمَّات الصِّعاب، وفاقتْ قوَّتُها وشجاعتها قوَّةَ الرجال، ومن ذلك ما قامتْ به يومَ أُحد سَنةَ ثلاث من الهجرة، وكانتْ تشارك في سقاية الجُند، وتحمل بيدها الماء في قِربةٍ صغيرة، وتدور به على الجرحَى والعطشى. لم تقتصرْ تلك المرأة العظيمة، على تقديم المساعدة إلى الجيش الإسلاميِّ فحسبُ؛ بل نراها تشارك أيضًا في القِتال، وها هي تُخبرنا عن ذلك فتقول: "خرجتُ أوَّلَ النهار إلى أُحد، وأنا أنظر ما يصنع النَّاسُ، ومعي سِقاءٌ فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو في أصحابه، والدَّولة والرِّيح للمسلمين، فلمَّا انهزم المسلمون، انحزتُ إلى رسول الله، فجعلتُ أُباشِر القِتال، وأدافع عنه بالسَّيف، وأرمي بالقوْس حتَّى خلصتْ إليَّ الجراح"، تقول راوية الحديث وهي جميلة بنت سعد بن الرَّبيع: "فرأيتُ على كَتفِها جرحًا له غَورٌ أجوفُ"[١٧٧]. وقد شوهدتْ -رضي الله عنها- في ذلك اليوم المشهود، وهي تُقاتل أشدَّ القِتال، وكانتْ تحجز ثوبَها على وسطها، حتى جُرحتْ ثلاثةَ عشر جرحًا، وكان أعظمُ هذه الجراح ناشئًا من ضربةِ الفارس المشرك ابن قميئة، لَمَّا ضربها الشقيُّ وهي تدافع بجسدها عن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وجلستْ تُداوي جُرحَها ذلك سَنة كاملة. وتَمضي أمُّ عمارة في سبيل الجِهاد يومَ أُحد قُدمًا، وقد شعرتْ بدقَّة الموقف، ورسول الله مستهدفٌ فمضتْ تَقِيه وتفديه، وتُناجِز العدوَّ، فلا تعبأ بما يُصيب جسدَها من جراح، وما ينال صدرَها مِن سِهام، ويعجب حينها -صلَّى الله عليه وسلَّم- بصنيعها، فيقول: (لَمَقام نسيبةَ بنت كعب خيرٌ من مقام فلان وفلان)، وعنها يقول أيضًا: (ومَن يُطيق ما تُطيقين يا أمَّ عمارة)، ويقرُّ رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- لأمِّ عمارة فضلَها

---

[١٧٦] "المغازي"، (٢/٧٣١).
[١٧٧] "السيرة الحلبية"، (٢/٢٣٠).

وبلاءَها في ذلك اليوم المشهود، فيقول: (ما التفتُّ يمينًا ولا شِمالاً إلاَّ رأيتُها تقاتل دوني)، وفي ذلك إقرارٌ بالاستبسال، ومقاتلة العدوِّ قتالاً مباشرًا، بالإضافة إلى خِفَّة الحركة بالذود عن رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– حتى نهاية المعركة[١٧٨]. ويُصاب ابنُها عبدالله، فتجرح عضدُه اليُسرى، وغدتْ تنزف نزفًا غزيرًا، فراحتْ أمُّه تُمرِّضه وتضمِّده، حتى إذا اطمأنَّتْ عليه قالتْ له: "انهض بُنيَّ فضاربِ القوم"، ولم يملكْ حينَها رسولُ الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– إلاَّ أن يدعوَ لهذه الأُسرة المجاهدة مِن سويداء قلبه قائلاً: "بارك الله عليكم مِن أهل بيت، ورَحِمكم الله أهلَ بيت، اللهمَّ اجعلهم رُفقائي في الجنَّة"، فبوركتْ حينَها أمُّ عمارة ببركة هذا الدُّعاء، وبورك لها مقامُها الطيِّب، وتفرُّ من مُقلَتيها دموعُ الفرح الباكي، وهي تقول: "ما أُبالي بعدَها ما أصابني من الدنيا"[١٧٩]. حاولتْ أمُّ عمارة بعدَ أُحد المشاركةَ في غزوة حمراء الأسد، وشدَّتْ عليها ثيابَ الجِهاد رغمَ ما نزل بها من شدَّة البلاء يومَ أُحد، إلاَّ أنَّ إلحاح نزيف جرحِها الطريِّ الذي لم يبرأْ بعد، منعها من الخروج وصدَّها عن متابعة المسير، فرجعتْ وعينُها تَفيض من الدَّمع حزنًا من عدم تمكُّنِها من تلبية نداء الجِهاد، وانكبَّ عليها أهلُها وذووها يمرِّضونها ويضمِّدون عليها جراحها النازفة[١٨٠]. وتمرُّ الأيَّام، فإذا بالسيِّدة أمِّ عمارة تشهد مع رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – غزوةَ بني قريظةَ في السَّنة الرابعة للهجرة، وممَّا يدلُّ على دورها الفاعل في تلك الغزوة ما خُصِّص لها من قِسمة الغنائم. وفي سنة ستٍّ للهجرة، تخرج أمُّ عمارة –رضي الله عنها– ثانية مع رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– وقد يَمَّموا وجوهَهم صوبَ خيبر، وكان في الجيش عشرون امرأةً كانت أمُّ عمارة على رأسهنَّ، تداوي الجرحى، وتناول السِّهام، وتَسقي السَّويق، وضربتْ بذلك مثلاً آخرَ في جاهزيَّة المجتمع المسلم إذا نزلتْ به النوازلُ وقْتَ الحرْب والنفير[١٨١]. وها هي غزوة حنينٍ تقدم في السَّنة الثامنة بعد الفتح، وها هي أمُّ عمارةَ تضرب أروعَ الأمثلة الأخرى في دِفاعها عن المبدأ والعقيدة، وتشتركُ بصورة مباشرة في أحداث قلْب المعركة، ونتركها وهي تروي لنا طرفًا عن دَورِها في ذلك اليوم المشهود، فتقول: "لَمَّا كان يومُ حنين، والناس منهزمون في كلِّ وجه، وأنا وأربعُ نسوة في يدي سَيف صارم، وأمُّ سُليم قد حزمتْ وسطَها، وهي يومئذٍ حامل، وأمُّ سليط، وأمُّ الحارث، فجعلتُ أسلُّ السيف، وأصيح بالأنصار: أيَّة عادة

---

[١٧٨] "الطبقات"، (٤١٥/٨).
[١٧٩] "المغازي"، (٢٧٣/١).
[١٨٠] "الطبقات الكبرى"، (٤١٣/٨).
[١٨١] "المغازي"، (٦٣٤/٢).

هذه؟! ما لكم وللفِرار؟! وأنظر إلى رجل مشركٍ من هوازن على جمل، معه لِواء، يريد أن يوضع جمله في أثر المسلمين، فأعترض له فأضربُ عُرقوبَ الجمل، فوقع على عَجُزِه، وأشُدُّ عليه، فلم أزلْ أضربُه حتى أثبتُّه، وأخذتُ سيفًا له، ورسول الله قائمٌ مصلِّت السيفَ بيده، قد طرح غِمدَه، ينادي: يا أصحابَ سورة البقرة[١٨٢]."

وفي سَنة اثنتي عشرةَ للهجرة، يُعلن الصِّدِّيق -رضي الله عنه- عن نيِّته في حرب المرتدين، ويتجدَّد حَنينُ أمِّ عمارة للجِهاد، فتذكر ما كان من سابق عهدها مع رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتتوق نفسُها إلى ذلك، ويصحُّ عزمُها على المشاركة، وها هي تستلم سيفَها المصلت، تُهاجِم به أعداءَ الله، فجُرحتْ في ذلك اليوم أَحدَ عشرَ جرحًا، وقُطعتْ يدُها لَمَّا حاولتِ النيلَ من مُسيلمة، فكانتْ بذلك معركةُ اليمامة صفحةً جديدة، أضيفتْ إلى صفحاتِ السيِّدة العظيمة، وكانت تلك آخِرَ ما شهدتْه أمُّ عمارة من المعارك، بعد أن شربتْ هنيئًا من كأس الجِهاد، وتشرفتْ بخِدمة الدعوة بالنفس والمال والولد[١٨٣]. وتمرُّ السِّنون وأمُّ عمارة في خِدرها عابدةً ساجدةً زاهدة، تتذكَّر وتحنُّ إلى ما خلا من أعوام ماضيات، حافلات بالجِهاد والتضحيات، وظلَّتِ السيِّدة المؤمنة تعبد ربَّها حتى أتاها اليقين، حين صَعدتِ النفس المطمئِنَّة إلى بارئها، وكان ذلك نحوَ سنة ١٣ من الهجرة، وعُدَّتْ جراحُها أثناءَ تغسيلها جرحًا جرحًا، فإذا بها ثلاثةَ عشرَ جرحًا. ورقد الجثمانُ الطاهر في البقيع، إلى جوارِ مَن سبقه من الصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين، وارتفع مَقامُ أمِّ عمارة في الأرض إلى مقامٍ أعلى وأسمى في دار الخُلود، بعد حياة قَضتْها وهي تُجاهد في سبيل الله جنبًا إلى جنب مع أُسرتها المؤمنة الصابرة[١٨٤].

وأخيراً،، متى تعمل؟

إذا هرمتَ وحملت العصا؟

إذا ضعف البصر والسمع؟

إذا حيل بينك وبين ما تريد؟

---

[١٨٢] "المغازي"، (٩٠٢/٣).
[١٨٣] "السيرة الحلبية"، (٢٣٠/٢).
[١٨٤] "المغازي، (٢٧٠/١).

إذا شغلتك خاصتك أو أمر العامة؟

أم حين توسد بالتراب؟

أسئلة تحتاج إلى وقفة صادقة، وعزم مثابر، وتأمل رحمني الله وإياك في هذا الرثاء العظيم، والوصف الكريم، فقد رثى جملة من الخلق ولكن تجمعهم مظلة واحدة ظاهرة للعالَمين (الفاعلية):

إذا ما مات ذو علم وتقوى *** فقد ثُلِمت من الإسلام ثُلمة
وموتُ الحاكم العدلِ المولّى *** بحكم الشرع منقصةٌ ونقمة
وموت العابدِ القوّام ليلاً *** يُناجي ربّه في كل ظلمة
وموتُ فتىً كثير الجود محلٌ *** فإن بقاءه خصبٌ ونعمة
وموتُ الفارس الضرغام هدمٌ *** فكم شهِدتْ له بالنصر عزمة
فحسبُك خمسةٌ يُبكى عليهم *** وباقي الناس تخفيف ورحمة
وباقي الناس همجٌ رعاعٌ ** وفي إيجادِهم لله حكمة

بادر للعمل، واغتنم حياتك، واكلف من العمل ما تطيق، فلا زالت الأبواب مفتوحة، والطرق ممهودة، والعالَم كلَه سيفسح لك الطريقّ إذا علم وجهتك.

وكتبه/ سعيد بن محمد آل ثابت

Thabit66@gmail.com